

روايات عبر



فلورا كيد

أسوار وأسرار



www.elromancia.com

مروية

روايات عبر

HARLEQUIN — "ABIR" — No. 101

أسوار وأسرار

قال لها:

«لا أريدك أن ترحلي. وافكر جيداً بأن أسجنك هنا في الحصن، سأجلب لك الطعام والشراب وبعدها أعانقك. وقبل أن ينتهي الليل تعترفين بأنك تحبين ذلك».

سألته وهي لا تصدق ما تسمع:

«وهل هناك شروط؟».

«شروط واحد فقط، أن تتزوجيني، هل يمكنك اتخاذ مثل هذا القرار؟ هل يمكنك أن تهبطي من برجك العالي وتتنازلي وتتزوجيني؟ أنا ملاك مفلس، اسم عائلته ملطخ بالسواد، هل تقبلينني أم أسجنك؟».

«لا أصدق لماذا يحصل لي ذلك. هل هذا صحيح؟».

«انت صعبة الاقناع لكني سأجرب، انت اول زهرة التقطتها وارغب ان تبقى معي».

السودان ٨٠٠ م	اليمن ٩ ر	الكويت ٧٥٠ ف	لبنان ٨٠٠ ل.د.
U.K. £ 1	تونس ١ د	الإمارات ١٠ د	شورية ٨٠٠ ل.د.
France F 10	ليبيا ٧٠٠ د	البحرين ١ د	الأردن ٦٠٠ ف
Greece Drs 150	المغرب ٨ د	قطر ١٠ ر	العراق ٥٠٠ ف
Cyprus P 1	مصر ٨٠٠ م	عمان ١ ر	السعودية ٩ ر

العنوان الاصلى لهذه الرواية بالانكليزية
THE BLACK KNIGHT

١ - الفارس الأسود

كان الباص يسير ببطء على جسر ضيق يمر فوق نهر. نظرت ساندي فيليبس من النافذة قربها وقرأت كلمة اسكوتلندا على اشارة موجودة الى جانب الطريق.

وصلت ساندي الى هذا القسم من بريطانيا الذي لم تزره من قبل. شعور مثير انتابها. اسكوتلندا بلاد جبلية مليئة بالمستنقعات. فيها اودية صغيرة. او قلاع وحصون قديمة اثرية. ومزارع صغيرة مسورة وحقول واسعة.

سار فوق هذه الطرقات، من قديم الزمان مئات من جنود الرومان ابتلعها القفار الواسعة هنا، وضاعت في البراري وضاعت اثارها. لم تستغرب ساندي ضياع فرقة من الجنود هنا بعد ان جالت بصرها من نافذة الباص في الحقول الواسعة التي كانت الطريق تخترقها. المطر ينهمر والضباب يغمر الحقول الخضراء الرمادية المشبعة بالمطر. خلف الحقول تطل تلال بعيدة هي متعة للنظر. ربما ستبتلعها القفار كما حصل لفرقة الجنود الرومانية. لم لا؟ سرحت ساندي بخيالها عبر عصور التاريخ، هي تحلم في وضوح النهار، حتماً ستبتلعها السهول الواسعة اذا حاولت رؤية ما خلفها في البعيد البعيد. انحرف الباص الى الشمال، قرأت لوحة جانبية على الطريق كتب عليها «غرنتا غرين». تذكرت هذه القرية الصغيرة وما تحمله من احلام رومانطيقية. كان العديد من الشباب والشابات يقصدونها ليتزوجوا خطيفة.

هذه هي الرحلة الاولى لساندي الى اسكوتلندا. رحلة طويلة قطعتها

© FLORA KIDD 1976
© 1983 Harlequin (Cyprus) Ltd.

حقوق التأليف: فلورا كيد
جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس والترجمة محفوظة لهارلكوين
(قبرص) المحدودة

المراسلات
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

من لندن الى كارليزل في سيارة عمومية كبيرة مخصصة للمسافات الطويلة. سريعة الحركة ولكنها مريحة. توقفت عدة مرات على الطريق. رحلتها عبر اسكوتلندا من مدينة غالوي كانت معتدلة السرعة والطريق معظمها مطبات.

لم تشعر ساندي بأي عناء. منذ الصباح وهي على الطريق تجلس مستقيمة، اكتفائها مرتفعة وعيناها مفتوحتان، متيقظة ومتحمسة لكل ما يدور حولها في الداخل والخارج.

ساندي فتاة طويلة نحيلة، ساقاها طويلتان وهي ترتدي بنطلوناً من الجينز، أزرق باهت اللون مع قميص قطني، فوقه سترة مائعة للمطر شعرها الطويل المنسدل، مفروق في الوسط يتدلى فوق كتفها بلون الرمال الصفراء. تخرجت ساندي منذ شهرين من الجامعة، تحمل شهادة بكالوريوس في علم التاريخ. بعد ان امضت ثلاث سنوات في الدراسة والتعمق توجتها بالنجاح، عملت منذ تخرجها في عدة وظائف مختلفة لتشغل نفسها بها في مدينتها، حيث تعيش في كنف والديها، كانت ترغب في جمع بعض المال الضروري لمتابعة تحصيلها الجامعي لنيل شهادة ارفع في تخصصها.

تلقت رسالة من ابنة خالها مرتا من دون انتظار. قرأتها بتمعن. كانت مرتا تتمنى عليها ان تقبل دعوتها لتمضية فصل الصيف عندها. مرتا ابنة خالها شابة متهورة، تحب الحياة واللهو. ترملت فجأة بعد موت زوجها كروفورد كالدويل بحادث سيارة مفجع، في سباق للسيارات، وترك لها ولداً في عامه الثاني. تقول مرتا في رسالتها انها تكتب اليها من بيت جدود زوجها في اسكوتلندا.

فتحت ساندي حقيبة يدها الجلدية واخرجت منها الرسالة واعادت قراءتها:

«عزيزتي ساندي،

كما ترين من العنوان الموجود على الرسالة، انني وصلت سالمة الى «دانكريغان»، كانت صدمة لي عند وصولي اذ اكتشفت ان والد زوجي كافن قد توفي منذ سنتين. ولم نكن انا وزوجي كروفورد نعرف هذه الحقيقة. من المؤكد ان اتصالات ومحاولات عديدة لاعلام زوجي بالخبر،

في حينه، باءت بالفشل. كانت جميع هذه الرسائل تعاد لصاحبها لان المرسل اليه غير موجود ولا عنوان جديد لديه. كان هذا ما دفعناه انا وزوجي ثمناً لتكرار انتقالنا وعدم استقرارنا في مكان ما.

يملك المزرعة الآن ليماندا الشقيق التوأم لزوجي. هي قلعة قديمة وقربها منزل جديد نسكنه، يسمونه كذلك مع انه ليس جديداً لانه بني منذ عشرين سنة. ستحيين العيش هنا في هذا المكان التاريخي الذي يرتبط بالماضي.

دعاني ليماندا لاعيش هنا مع ابني ديرميد وقد قبلت دعوته. وصلت منذ ستة اسابيع. وقررت البقاء في دانكريغان من اجل ابني كي يتربى في منزل جدوده. هنا تربي والده كروفورد وترعرع وسأتيح لابني فرصة التمتع بالامتيازات ذاتها التي كانت لوالده من قبله ولذلك سأبقى هنا.

عزيزتي ساندي، احتاج لمساندتك المعنوية، مساندة لا تأتي الا من فرد من افراد العائلة الواحدة، وانت اقرب الي من شقيقتي في هذه الحياة. اقترح عليك، اذا لم تكوني مرتبطة بعمل ما لهذا الصيف، ان تحضري الى هنا لتساعديني في رعاية ابني ديرميد مقابل سكنك ومعيشتك، خلال عطلة الصيف. انه شيطان صغير وانا اجد صعوبة في ملاحقته لوحدي. اذكر دائماً رعايتك له يوم نزلت عندكم في انكلترا، عند عمتي جين وعمي توم، والديك، بعد وفاة زوجي. انا متأكدة ان وجودك معنا في دانكريغان سيساعدني وابني على الاستقرار.

يوم وصلت ومعني ابني، استقبلني كل من في المنزل بحرارة وود. تعرفت الى بعض الاصدقاء الجدد. انني اجد ليماندا متحفظة ومنطوية وغريب الاطوار. ارجوك يا ساندي ان تحضري لان وجودك يساعدني كثيراً ولأنك من لحمي ودمي ويمكنك ان اثق بك في رعاية ابني. اذا وافقت على الحضور اعلميني متى وكيف واين ستصلين وسأرسل من يستقبلك».

طوت ساندي الرسالة واعادتها الى حقيبتها. يوم استلمت ساندي الرسالة واطلعت والدتها عليها كان ردها الفوري:

«عليك بالذهاب. ان ابنة خالك مرتا تعرف ما عليها من واجب لكنها، كما هو واضح، تجد صعوبة في تحقيق غايتها. صحيح انها ستبقى هناك من اجل ابنها ولكنني اقرأ بين السطور انها تخاف من شقيق زوجها. اذهبي يا

ساندي وايقي قربها وامسكي بيدها وشجعها. مرتا تحب من يمك بيدها ويمعها ويشعرها بالحب والاهتمام.

وعلى الفور بدأت ساندي استعدادها للسفر واكملت المعاملات الضرورية له واستعملت الباص لأنه أرخص وسائل النقل الى دانكريغان. وها هي الآن تدخل بلدة عنان.

توقفت الباص في الشارع العريض الذي بللته الامطار. حركة السير عظيمة. بدأ اللغظ باللهجة الاسكوتلندية في حركة نزول وصعود الركاب. جلست امرأة بدينة قرب ساندي. اعتذرت لها لأنها ستأخذ قسماً كبيراً من المقعد المزدوج. كانت تحمل باقة ورد جميلة في يدها. ابدت ساندي اعجابها بالورود فأخبرتها المرأة انها في طريقها الى المستشفى في دمفريز لتزور ابنتها التي وضعت مولودها الأول. كانت المرأة سعيدة جداً بحفيدها وقالت مخاطبة ساندي:

«عرفت من لهجتك انك لست من هنا».

«كلا انا غريبة. قدمت من هامشير في جنوب انكلترا في طريقي الى حصن دانكريغان».

«اوه، ولكن لماذا تقصدين هذا الحصن؟».

«لأبقى في ضيافة ابنة خالي التي تسكن هناك. هل تعرفين المكان؟».

«آه. نعم. لقد تربيت في مكان قريب من الحصن وما يزال شقيقي يملك مزرعة بالقرب منه».

«اذن انت تعرفين اصحاب الحصن والعائلة التي تملكه؟».

«الكالدويل السود تعنين؟» تنحنحت المرأة واكملت:

«ليس هناك ما لا اعرفه عنهم».

«اخبريني لماذا لقبوهم بالسود».

«هو يا صغيرتي لقبهم لأن لون بشرتهم يميل الى السواد فشعرهم اسود فاحم وكذلك عيونهم سوداء. ربما ايضا لقبوهم بالسود نسبة لأعمالهم السوداء في الماضي».

«ما هو نوع اعمالهم السوداء؟».

«أعمال بشعة كالسرقة، النهب، التهريب وما شابه».

«ماذا كانوا يسرقون؟».

«كانوا يسرقون الماشية من الغير، كالخراف والبقر وغيرها. كان العديد من الناس يقومون بمثل تلك الأعمال ولكنهم يبيزونهم ويتفوقون عليهم. ومع الأيام أصبحوا من الاثرياء وبالتالي احترمتهم الناس لما هم. سمعت ان المايجور السيد كافن كالدويل، الذي توفي منذ سنتين، مات مفلساً. عمل في الجيش، مثل جدوده، واستحق العديد من الميداليات لبطولات احرزها في الجيش. كان السيد كافن منظوياً على نفسه ومنعزلاً عن الناس بعد وفاة زوجته وحزنه عليها. كانت زوجته وقحة ومتهورة وقد تركت له ولدين توأمين ليعتني بهما ويربيهما. شيطانين، شرمين، وغدبن ولا يستغرب ذلك فسوء تصرفها اكبر شاهد على انها يتيمان الى هذه العائلة السوداء. يعيش كبير التوأمين في الحصن الآن. ترك منزل والده منذ اثني عشرة سنة بعد ان تشاجر مع والده لسوء تصرفه مما حط من قدر العائلة، ثم عاد ليرث الاملاك. هو صارم وقاس جداً».

تشعب الحديث بين ساندي وجارتها البدينة وشمل مواضيع اخرى. وصل الباص الى ضاحية بلدة اخرى. نزلت المرأة الثرثرة وتابع الباص سيره ببطء. كانت ساندي تراقب المنازل وقرميدها الأحمر. حجارها بللها المطر. مرت امامها ساحة قديمة في برج قديم في الشارع الرئيسي. ثم وصل الباص الى ساحة كبيرة قرب النهر حيث نهاية الرحلة.

نزلت ساندي من الباص الى الشارع المبتل. لفحها الهواء البارد على وجنتيها كما داعب خصلات شعرها الاصفر المنسدل على كتفيها. كان صوت انسياب مياه النهر فوق السد يصل لسمعها. تساءلت هل حضرت ابنة خالها لاستقبالها؟

«آنسة فيليبس؟».

سمعت صوتاً خلفها يناديها. كان صوت رجل بارد، غير مميز. كان الذي ناداها لا يهيمه ان كانت هي الآنسة فيليبس ام غيرها. التفتت ساندي ناحية الرجل الذي ناداها. كان يقف خلفها مباشرة، اطول منها بقليل، عريض المنكبين، ويلبس سترة صفراء واقية من المطر. شعره الاسود القصير المبلل ينسدل فوق جبهته بدون ترتيب. ياقته مرفوعة الى اعل اتقاء للمطر. وجهه ممتلئ وصارم بدون اي ابتسام. تجلت قساوته في شدة سواد عينيه.

«نعم انا آنسة فيليس . ومن انت؟» .

اجابها باقتضاب :

«الدويل من دانكريغان» .

الى اي طبقة تنتمي هذه العائلة في علم الانساب؟ تساءلت ساندي وهي تنظر الى الرجل الواقف امامها . لا بد انه ليماندا المنطوي ، المنعزل ، الغريب الاطوار . هو بعينه وريث حصن كالدويل وبممتلكاته .

سألها بجفاف وهو يشير الى حقيبة صغيرة بقرها :

«هل هذا كل ما تحمله معك من متاع؟» .

اجابته وهي تحاول الابتسام ، رافضة ان يسخر منها ويحط من قدرها .

«نعم . انا اسافر خفيفة» .

رمقها بنظرة أمرة وقال :

«الشباب عادة يسافرون هكذا» . وفي اجابته حزم اكيد على ان الحديث قد انتهى .

حمل لها حقيبتها على كتفه وادار ظهره ومشى امامها قائلاً :

«السيارة واقفة في الجهة الاخرى من هنا» .

كان على ساندي ان تتبعه عبر الشارع العريض المبلل الى سيارة قديمة بالية . وتأمل ان تجد ابنة خالها مرثا وابنها بانتظارها داخل السيارة ، لترحب بوصولها . لكن السيارة كانت فارغة من البشر . فتحت ليماندا صندوق السيارة الخلفي ووضع فيه الحقيبة فوق عدة متنافرة الاشكال مختلفة الانواع ثم اقفل الصندوق .

«ادخلي» امرها ثم مشى هو الى المقعد خلف مقود السيارة .

«هل اجلس في المقعد الخلفي ام الامامي؟» .

«كما يحلو لك ! الابواب كلها مفتوحة» . اجابها بدون اي اكتراث فشعرت بأنها بدأت تكرهه وترفضه ، لم تنتظر منه اكثر من لياقات اولية في معاملتها . كان عدم اكتراثه بها وقحاً ومريراً ويصعب عليها احتمالها . وجدت كيساً صغيراً امام المقعد الخلفي على ارض السيارة ، لذلك اختارت ساندي المقعد الامامي . دخلت بعد ان ادار ليماندا محرك السيارة . خلع سترته الواقية ورمها على المقعد خلفه ، كان يرتدي طقمًا رمادياً مخصصاً للصيد مصنوعاً من اجود الاعمشة ، وكنتزة سوداء لها قبة عالية .

ادار المحرك وحل الكابح وبسرعة قفزت السيارة عدة قفزات ومشت بعدها بصعوبة . مشت فوق الجسر الى جهة الشمال وتوقفت على المفترق تنتظر دورها بالمرور . نظرت ساندي الى اشارة جانبية على الطريق كتب عليها . غلاسكو الى اليمين ، من ضمن لائحة بأسماء مدن اخرى . اضاء اللون الأخضر وتابعت السيارة تحركها الى الامام .

كانت مساحات الزجاج الامامي تزيل الامطار وهي ترقزق لانها تحتاج للتزييت ، والمحرك يخرج اصواتاً نشاذاً . لم تكن تنتظر ساندي سيارة مهترئة كهذه . كانت ابنة خالها تحبرها ان عائلة زوجها كروفورد من الميسورين ويملكون افخر الاثاث ويقتنون سيارات السبور والليموزين وغيرها من السيارات الفخمة .

بدأت رائحة تزكم الانوف تنتشر داخل السيارة . نظرت ساندي حولها متفحصة . لفت نظرها الكيس الموضوع في ارض السيارة خلفها . اعادت التحديق اليه . رأت عجللاً صغيراً يقبع في داخل الكيس ولم يظهر منه سوى رأسه . كانت عيناه مغلقتين . تمثت ساندي ان لا يكون ميتاً . استراحت ساندي بعد ان عرفت مصدر الرائحة الكريهة . نظرت عبر النافذة تتسلى . مرت السيارة بالمنازل القديمة من البناء الحجري الجيد يعلوها القرميد الاحمر وتلفها الشجيرات الوردية كأنها اكاليل الغار . وغيرها من المنازل التي بدأت تلمع الانوار من داخلها لتبدد العتمة التي بداخلها باكراً مع المطر الشديد . تابعت السيارة سيرها وسط حقول شاسعة رمادية بعضها مزروع بشجر الحور القاسي او الدردار .

ودت ساندي لو تستطيع ان تطرح على رفيقها بعض الاسئلة ولكنها لم تجرؤ لأنه كان يلف نفسه بجدار من الصمت الأمر .

استرقت ساندي النظر اليه بمكر من طرف عينيها . تذكرت جميع الصفات التي اسبغت عليها المرأة البدينة في الباص «رجل اسكوتلندي قاس وصلب» . اعادت النظر . نعم هو كذلك . وجهه وجبهته العريضة وشموخ انفه مع فمه الدقيق وفكه ينحرف في زاوية معينة كأنه تمثال حجري انه يشبه تمثال الفارس النورماندي الموجود فوق قبر في بلدتها هامشير بداخل الكنيسة .

سافرت ساندي مع احلام اليقظة عبر التاريخ وهي تنظر من النافذة الى

البعيد. لا بد ان مؤسس عائلة كالدويل هو فارس نورماندي. تخيلته قادماً من شمال انكلترا ليساعد الملك داوود الأول في تثبيت دعائم ملكه في اسكتلندا وبالمقابل اعطاه الملك الأراضي الواسعة مكافأة له على مساعداته.

فرحت ساندي بأسطورتها. التفتت الى ليماندا الجالس بالقرب منها لتستفسر منه عن اصله وتعرف الى اي مدى توصلت الى الحقيقة في تخيلاتها، لكنها اجبرت على السكوت. هو غير مبالي بل متعال. كأنها لم تكن موجودة معه داخل السيارة.

نظرت من جديد عبر النافذة لتكمل نظريتها. كالدويل هو فارس اسود قادم من التاريخ البعيد. يلبس درعاً اسود يوم القتال في المعركة. فارس اسود يقوم بالأعمال السوداء ولكنه شجاع. بطل من ابطال الحروب. بدأت السيارة تصعد تلة وتجري سريعة في خط مستقيم. كانت كالسهم تخترق طريقها بين الاشجار السوداء وبدت الطريق شديدة العتمة. الاضاءة الامامية للسيارة ضرورية. ارتال السيارات قادمة من الجهة المعاكسة تلمع اضواؤها كذلك. تشجعت وقالت بدون مقدمات:

«كم من الوقت يلزمنا لنصل الى حصن دانكريغان؟»

«ساعة اخرى» قطع الصمت اخيراً. لا بد له من ان يجيب على سؤالها. هو رجل قليل الكلام. هذا واضح. تلمعت ساندي في مقعدها. خفقت رأسها مسافة صغيرة واستندته الى حافة المقعد الخلفية لترتاح قليلاً.

«هل توجد مدينة بالقرب من الحصن؟»

«كيركتون».

«هل هي مدينة كبيرة؟»

«كلا. ربما خمسة آلاف نسمة او اقل».

«هل يمكنني الذهاب من دمفريز الى كيركتون بالباص؟»

«يمكنك».

كأنها تخرج الماء من الصخر، كانت تستخرج كلماته بصعوبة. لم تباس ساندي من جره الى الحديث. كيف يمكنها ان تبقى ساعة اخرى معه في هذه السيارة بدون ان تشاركه الكلام. هذا غير معقول. بدأت:

«كان يمكنك ان لا تحضر لاستقبالي الى دمفريز. كنت استطيع الوصول

بالباص الى كيركتون لوحدي».

«ان صمت من جديد، لم يعلق. عرفت انه لن يتجاوب مع دعوتها اياه لفتح الحديث. قدمت سيارة من الجهة المعاكسة ورشت الزجاج امامه بالوحل. المساحات الامامية تعمل على ازالتها بصعوبة. شتم السائق الآخر. قال:

«لم اتضايق ابداً من الحضور لاستقبالك». ثم اكمل بيروود «كنت في موعد عمل في دمفريز. وقد طلبت الي مرتا ان استقبلك في المحطة هذا المساء».

«شكراً. هذا لطف منك».

«ابداً. انا لا افعل الا ما يناسبني. لو اخذت الباص بنفسك الى كيركتون ستصلين في الحادية عشرة والنصف ليلاً. وكان لا بد لي اوجوني من استقبالك في ذلك الوقت المتأخر، فاستقبالك في دمفريز يناسبني اكثر». صمت آخر. وصلت السيارة الى اعلى التلة ثم نزلت الى الجهة الثانية. طوت السيارة المزيد من الحقول والقرى الصغيرة وبعض التجمعات السكنية. ازداد الطر انهماراً.

تأكدت ساندي الآن ان ليماندا كالدويل لا يرحب بها في دانكريغان. ربما دعته مرتا من دون ان تستأذنه أولاً. فكرت بالأمر، وبدأت تتجههم وتعبس بعد ان استعرضت صفات وتصرفات ابنة خالتها. مرتا تنصرف دائماً بتهور وسرعة وبدون ترو. بدأت تقول:

«ارجو ان يكون بقائي مع مرتا في دانكريغان لنهاية الصيف ممكناً». التفت بسرعة ناحيتها ورمقها بنظرة تساؤل من طرف عينه. اعاد نظره من جديد الى الطريق امامه. كانت الطريق لزجة، سريعة الانزلاق. «كم ستبقين؟» سألها «هل دعيتك مرتا؟».

«اذن، صدق حدسها. كانت على صواب في تفكيرها. ارتبكت كثيراً. اخرجت. شعرت بالخزي وبأن كرامتها قد هدرت.

«نعم. لقد دعيتي». ثم اكملت بصوت خفيض «الم تخبرك؟».

«كلا. كل ما قالته لي هذا الصباح، لما علمت بانني مسافر الى دمفريز، ان لها قريبة ستصل بعد الظهر لتتفرج على الحصن. فهمت من كلامها انك ستمكثين ليلة واحدة في طريقك الى مكان آخر».

جهدت ساندي من هول المفاجأة . لماذا لم تخبره مرثا بالحقيقة؟ نظرت الى وجهه الصارم وتكهنت السبب . انها لم تجرؤ . ربما كانت مرثا تخاف ان لا يوافق ليماندا على طلبها في ان تبقى ابنة عمتها عندها بقية الصيف . لهذا لم تسأله . نظرت ساندي اليه خجلة وقالت شارحة :
«لقد كتبت لي مرثا تدعوني لمساعدتها في رعاية ابنها ديرميد» .
سألها :

«هل هذا هو عملك؟ هل انت مربية اطفال؟» .
«كلا ، انه عمل مؤقت خلال اجازة الصيف» .
رغمها بنظرة جانبية اخرى بالرغم من العتمة التي عمت السيارة من الداخل وقال بحدة :

«أمل ان لا تنتظري ان تدفع لك اجراً على عملك هذا» .
«اوه . كلا . لقد كتبت مرثا انني اساعدها مقابل سكني ومعيشتي» .
أحسّت ساندي بمذلة ، مما جعلها ترى نفسها ضئيلة امامه . ما اصعب ان يكون الانسان محتاجاً . ان ليماندا يتصرف بكبرياء وعنجهية امراء الاقطاع ، جدوده . وهي امامه تستجدي مساعدته ونظرت اليه بترج وقالت :

«سيد كالدويل . انا اشعر بخجل من تصرفات ابنة خالي غير اللائقة» .
كان عليها ان تستأذنه أولاً .
«انت على حق ، كان عليها ان تسألني أولاً . مؤخراً اكتشفت انها غير صادقة وتستعمل طرقاً ملتوية . انا لا افهم لماذا تحتاج لاية مساعدة في رعاية وتربية ابنها . هي لا تعمل اي شيء سوى رعايته» .
«معظم الامهات يحتجن لبعض الوقت يتفرغن فيه لانفسهن وراحتهن . كذلك مرثا مثل بقية الامهات تجهد في الامومة عائلاً مضيئاً يشغلها معظم اوقاتها» .

وجدت ساندي نفسها تشرح له نظريات تتعلق بالامومة لم تخطر لها ببال من قبل . هي نفسها لا تفكر ان عمر هذه التجربة قبل سنوات عديدة اخرى .

«لماذا تقولين اغلب الامهات؟ لماذا ترفض مرثا مسؤوليتها كأم على عكس الامهات؟» .

«لا اظنها ترفضها . ولكنها مسؤولة كبيرة عليها لوحدها وهي ما تزال صغيرة السن» .

«عرفت امهات اصغر منها بكثير» .
«لا تنس انها الوحيدة المسؤولة عنه بغياب والده» .
«وهل هذا جديد تحت الشمس؟» .
«كلا . انني فقط احاول ان اشرح لك شعورها ونفسيته . فهي تحب الحياة . . .» .
قاطعتها :

«يعني ان تمتنع هي اولاً ولا فرق بعد ذلك من يتألم من بعدها . كما ان ذلك يعني ان حياتها مع كروفورد كانت موفقة وعظيمة فهو الزوج الملائم لها لانها كانتا متفقيين على حب الحياة واللهو ، ولكن ألم يكن موته كافياً ليبطئ من غليان حب الحياة في شرايينها ولو قليلاً» .

«وهل تنتظرها ان تلتف نفسها بوشاح اسود بقية حياتها تندبه وتبكيه» .
اجابته ساندي ، وفكرت في نفسها ، ربما يكون ليماندا من الظاهرين المتزمطين الذين قرأت عنهم . هم فئة من البشر لا تهتم بجمع الحياة بل تدعو الى التمسك الصارم بأهداب الدين والاخلاق الفاضلة .
وضحك ضحكة عالية ساخرة تهكمية ، ولكن ساندي لم تبتين وجهه من الظلمة التي اطبقت على داخل السيارة بعد ان عم الظلام مع دخول الليل ، وقال :

«لا . لا انتظر منها ذلك ابداً . متى رايت مرثا آخر مرة؟» .
«بعد الحادث مباشرة يوم رجعت الى انكلترا حزينة . استغرقنا وقتاً طويلاً لاجراجها من عزلتها الى الحياة . والدتي عمتها هي التي رعت مرثا طفلة صغيرة بعد موت والديها قتلاً ، تمت عليها البقاء عندنا ، ولكنها صممت الحضور مع ابنها الى اسكوتلندا ، كما وعدت زوجها كروفورد ، فاذا حصل له حادث في طريق السباق ان تأخذ ديرميد الى جدة ليراه . لم تكن تعرف ان جده قد توفي» .

«وهذا ايضاً ما عرفته منها «همهم» وانا لم اكن اعلم ان اخي قد تزوج وعنده ولد قبل حضورها الى الحصن منذ عدة اسابيع . لم يخطر ببالها ان تكتب اولاً وتستأذن بالحضور الى دانكريغان؟» .

اجفلت ساندي من انتقاداته اللاذعة، المبطنة لمرنا، وعدم لياقتها في التعامل مع الآخرين. صمتت ساندي مفكرة وهي تعض على شفتها السفلى سألته ساندي:

«الم تعرف انت عنها وعن ابنها؟ الم تكن انت تتصل بأخيك؟»
«حاولت عدة مرات خلال السنوات السابقة ولكنني فشلت. كانت رسائلي تعود الي وعليها جملة (انتقل الى سكن اخر غير معروف العنوان). كتبت له حين توفي والدي. لم استلم جوابه او اي كلمة تعزية منه.»
«الم يكن كروفورد على اتصال بوالده؟»
وضحك قبل ان يجيبها بالنفي ضحكة ساخرة مريرة. قالت:
«ولماذا لا؟»

«الم تسمعي بالكبرياء يا آنسة فيليس؟ ان عائلة كالدويل لديها الفيض من الكبرياء. كان والدي وشقيقي كروفورد لديها تحمة منها. قام شقيقي كروفورد، في الماضي، بعمل اغضب والدي. فطلب اليه والدي مغادرة المنزل وعدم العودة اليه. وهذا ما نفذه كروفورد بدون تردد. لم يحاول شقيقي ترطيب الجو بالكتابة اليه او حتى اخباره بولادة حفيد له.»
علقت ساندي على قوله:

«اوه. كم هو حقود كأنه يعيش في ظلمات القرون الوسطى.»
كانت ساندي تنتمي الى عائلة متلاحمة الروابط. كل اعضائها على اتصال دائم ببعضهم البعض. علاقاتهم حميدة. لذلك وجدت تصرفات كالدويل واولاده غير لائقة بل همجية ومخالفة لمبادئ المدنية الحضارية.
«واوافقك رأيك. لكن عائلة كالدويل عرفت بأعمالها السوداء واتصفت بما يجمل. واطن ان مرنا لو عرفت عنا هذه الحقائق لما لجأت اليها مع ابنها. لقد صعدت لما اخبرتها ان والدي ترك لنا ديوناً متراكمة ما زلت اعمل كي اسدها حتى الآن.»

«اذا كان والدك لم يترك وصية، كيف ورثت لوحذك الحصن والمنزل؟»
«ان الاملاك يرثها الكبير من الابناء في عرف اهل البلد. وانا اكبر كروفورد شقيقي التوام بخمس دقائق فقط.»
«اذن. لم يرث كروفورد اي شيء؟»
«نعم. ليس هناك اي شيء له، فقط بعض السيارات القديمة كان

يستعملها أخي يوم كان في دانكريغان». ثم ضحك ضحكة مبطنة وهو يكمل «كان عليك ان تري وجه ابنة خالك عندما رأيتها وأخبرتها ان سقف المنزل يدلف في فصل الشتاء. لقد تعجبت كيف قبلت البقاء هنا في دانكريغان بالرغم من كل ما ذكرته، وبعد ان خبرت بنفسها، كم ينقص المنزل من اشياء اساسية ليصبح العيش فيه مريحاً بل مقبولاً».

جلست ساندي في مقعدها فاقدة الصواب، صامتة، مصعوقة بما سمعت. تذكرت فحوى الرسالة التي استلمتها من مرنا تقول فيها (من اجل سعادة ديرميد ابني سأعود الى اسكوتلندا - الى دانكريغان لاجعله منزلاً لي وله. كان القصر منزل كروفورد بالسابق وكانت امنيته ان يترى ابنه فيه ليحظى بالرفاهية التي عاشها هو). كيف يمكن لمرنا البقاء هنا بالرغم من ان احداً لم يرحب ببقائها؟ كيف تفرض نفسها في ضيافة ليماندا رغماً عنه؟ هو يكافح ليجمع المال لسدد ديون والده. السقف يرشح ويحتاج لاصلاح وبالتالى للمال. اي رفاهية تنتظر ابنها؟ افضل لمرنا الرجوع الى جنوب انكلترا حيث يمكنها ان تجد عملاً، كذلك يمكن لعمتها جين ان ترعى لها ابنها في اثناء غيابها في عملها. ثم قالت:

«سيد كالدويل! اشعر ان علي ان اعتذر لك عن تصرفات ابنة خالي مرنا. لا يجوز لها ان تفرض نفسها عليك وعلى ضيافتك. لكنها كتبت تقول انك دعوتها للبقاء هنا بنفسك».

«نعم. انا دعوتها. عليك ان لا تنسي ان ديرميد هو ابن شقيقي. احب ان اتعرف اليه!» وقطع حديثه فجأة. واحست ساندي بأنفاسه تهبس بتنهيدة سخط بل غضب. قالت:

«وهل توصلت لمعرفته؟»

«ليس كما يجب».

«فهمت الآن اسباب عدم ترحيبك بوصولي» قالت ساندي بصوت منخفض ثم اردفت:

«سوف ارحل غداً عائدة ادراجي، هذا اذا سمحت لي بالبقاء ليلة واحدة عندك في دانكريغان».

لم يجب. كان يفكر. احست ساندي كان قواء قد خارت. صمتت ساندي واعادت نظرها الى خارج السيارة ترقب من النافذة الظلام. اقتربت السيارة من بلدة صغيرة. ارتال السيارات تمر بها وترسل أضواؤها انواراً تشير الى حافة الطريق. ابطأت السيارة ودلفت الى مفرق لجهة الشمال. ومرة ثانية اصبحت السيارة خارج البلدة. الاشجار هنا متلاصقة وملتفة. صف الاشجار على جانبي الطريق يشكل نفقاً تسير السيارات بداخله. انتهى صف الاشجار وخرجت السيارة مرة اخرى الى العراء، الى الريف. ظهرت اشكال غريبة امام السيارة. ابطأ ليماندا سرعته، ركضت هذه الأشكال من امامه بسرعة. سألته ساندي:

«ما هذه؟»

«انها خراف».

انزعج العجل الصغير القابع خلفها في الكيس، من صوت الزمور. نخر وتنشق بصوت مسموع. شعرت ساندي بثقل في رأسها كأنها تخدرت. هزت رأسها ورفعته الى اعلى حتى لا يغالبها النعاس ولكن بالرغم من ذلك شعرت ان عينيها مثقلة. اغلقتها وغفت.

أفاقت على صوت توقف محرك السيارة. فتحت عينيها لمحت المنزل وسط العتمة. كانت السيارة قد توقفت امام بعض الدرجات المؤدية الى فسحة المنزل. يرتكز المنزل فوق عواميد حجرية. تنتهي فسحة الدار بقنطرة قديمة بداخلها باب خشبي مزخرف على شكل بيوت العنكبوت. فوق الباب ضوء صغير خافت. اطفأ ليماندا ضوء سيارته ومد يده الى المقعد الخلفي واخرج سترته البصفراء. فتح بابه وخرج. ليس سترته ومشى الى الصندوق الخلفي واخرج منه حقيبة ساندي. فتحت هي بابها بنفسها ورفعت قبة سترتها على رقبتها كي تحمي شعرها ما امكن من البلبل. مشت الى خلف السيارة وحملت بنفسها حقيبتها. اغلق ليماندا صندوق السيارة.

«ادخلي الى المنزل». تكلم بلهجة آمرة اعتادها واكمل «علي ان احمل العجل الى الزريبة».

مشت ساندي مطيعة اوامره، تحمل حقيبتها. صعدت الدرجات وتمكنت رغم الانارة الخفيفة من رؤية الباب الخارجي. ولاحظت فوراً قدم الباب وحاجته الى دهان وتصليح. كان فوق الباب جرس قديم مثدل.

امسكت به لتقصره. فوجئت بمسكته تنقطع وتبقى في يدها قبل ان يسمع للجرس رنين. لم يكن الجرس موصولاً بأي سلك كهربائي وهو غير صالح اصلاً لأي استعمال. حاولت ساندي اعادة المسكة لمكانها ولكنها لم تفلح بل سقطت من يدها وحدث سقوطها قرعة عندما ارتطمت بالأرض. التفتت المسكة واحتارت ماذا ستفعل بها. سمعت وقع اقدام على الحصى. ثوان وظهر ليماندا. قفز الدرجات بخفة ونظر الى يدها المسكة بالجرس المقطوع.

«حاولت قرع الجرس. وقعت المسكة...». كانت ساندي تشرح له ما حصل وتمدد يدها وبداخلها مسكة الجرس.

«ارجو ان لا تكوني من هؤلاء الناس الذين يخربون كل ما يلمسون».

كان ليماندا يكلمها بلهجة ساخرة وقد مد يده واخذ مسكة الجرس ووضعها مكانها واكمل «لأن قصر دانكريغان كله يحتاج لمن يمسك باشيائه بلطف وانتباه والا يفتت ويخرب. الباب لا يقفل ابداً. كان عليك ان تدبري مسكة الباب الخارجية فيفتح».

فتح لها الباب واثار اليها بالدخول. دخلت الى قاعة كبيرة تدلت من سقفها ثريا قديمة خافتة الأضواء لأن بعض اقسامها كان خالياً من اللمبات. وسط القاعة سجادة هندية خيوطها بالية ولونها باهت. كانت تغطي قسماً مربعاً من الأرضية الخشبية. توجد سلالم تؤدي الى الطابق الأول الى يمين القاعة. لم تكن السلالم مغطاة بأي سجادة. في طرف القاعة بعض الكراسي الاثرية ويوجد على الحيطان بعض الصور الزيتية في اطرار فخمة مطلية بالذهب. حيطان القاعة لونها أصفر باهت.

فتح باب الى اليمين وخرجت منه امرأة وخرج معها من الغرفة صوت تلفزيون مسموع. تمثت ساندي ان تكون تلك المرأة ابنة خالها مرتا ولكن املها خاب لأن المرأة اطول واكبر سناً من مرتا. قالت المرأة:

«سمعت الباب يفتح، هل وجدت الفتاة القادمة من انكلترا يا ليماندا؟».

«نعم، هذه ساندي فيليبس».

«اهلا وسهلاً في دانكريغان» قالت المرأة وهي تبسم. كانت ترتدي تنورة من قماش التويد الصوفي وفوقها كتزة صوفية. شعرها الأسود يخالطه

البياض مما اعطاه لونه الرمادي، تعقسه بصفيرة حول رأسها.
«هذه نان كوري وهي مدبرة المنزل منذ عشرين سنة».

«تشرفتنا».

«أين مرنا؟».

«ذهبت الى نادي اليخوت مع جوني».

«وأين الولد؟».

«نائب بعد ان قصصت عليه القصص العديدة».

«قلت نان وهي تبسم».

«ثم التفتت الى ساندي وقالت:

«انت متعبة جداً بعد هذه الرحلة الطويلة. كذلك لا بد ان الجوع قد استبد بك. سأضع ابريق الماء على النار من اجل الشاي. ضع حقيبتك في اسفل السلم وسنحملها الى غرفتك في الطابق العلوي بعد العشاء. الى اليسار ستجدين حماماً صغيراً. اغسل يديك واتبعيني الى المطبخ من اجل الطعام. نحن لا نستعمل غرفة الطعام في هذه الايام الا نادراً».

سرت ساندي بترحيب نان بها. غسلت يديها ومضت لتوها الى المطبخ عبر عمر الى يمين القاعة. جلست الى طاولة كبيرة يغطيها شرف زاهي الألوان، نظيف. اكلت وجبتها التي وضعت امامها بنهم بدون ان تنبس بينت شفة. كان يجلس معها ليماندا يأكل وجبته التي امامه بدون كلام. المطبخ مربع وواسع وله ارض حجرية. كان هيب نار خفيف يخرج من الموقد القديم، منظر بديع في ليلة شديدة المطر. والسنة اللهب تنعكس على ادوات المطبخ النحاسية المعلقة على الحيطان. خزائنه الخشبية دهنت بلون اصفر في محاولة لتجميله. زهور ونباتات عديدة من النوع الذي يعيش داخل المنازل هنا وهناك فوق الرفوف او على ظهر الخزانة.

كانت نان تقوم على خدمتهما اثناء الطعام. تصب الشاي الغامق من ابريق فخار وهي تسأل ليماندا اسئلة تتعلق برحلته من والى دمغريز وتسمع اجاباته، وترقب ساندي بطرف عينيها.

شعرت ساندي بنظرات نان الفاحصة لها، كما لاحظت الشبه الكبير بينها وبين ليماندا. الاثنان لهما شعر اسود وعينان سوداوان. بشرتهما مائلة الى الاسمرار وتقاطيع وجهيهما غريبة عن اسكوتلندا. ربما بعض الجدود

قدم من الشرق الأوسط وربما تكون نان والدته.
«كلا. انا لست والدته ليماندا ولكنني ابنة عم والده كافن كالدويل وجدودنا واحدة. والدتي كانت شقيقة والدته كافن».

«قلت نان، كأنها قرأت ما كانت تفكر به ساندي».

«اوه!» استغربت ساندي ونقلت بصرها بين ليماندا ونان بسرعة وسألتهما «كيف عرفت بما كنت افكر فيه؟».

«انت صغيرة، وعيناك صافيتان تعكسان ما في داخلك». اجابته نان بصوت جهوري واضح. كانت عيناها السوداوان ترسلان بريقاً ساحراً. ثم اكملت «لم تتعلمي بعد يا صغيرتي كيف تخفين ما بداخلك. انت واضحة كالنهار وهذا ما يجعلك طيبة ومحبة، مع انه يشكل خطراً عليك».

«هل عدت الى تكهناثك؟» سألتها ليماندا ونظر الى ساندي وخاطبها: «تزوج احد ابناء كالدويل، قديماً، غجرية صغيرة، كانت ابنة ملك العجر في هذه الضواحي. تحمل نان في عروقتها دماً غجرياً بالوراثة. وتتكهن ان هذه القطرات الغجرية تمكنها من قراءة الافكار والتنبؤ بالمستقبل. لا تأخذي ما تقوله لك على محمل الجد فهو لا يحمل من الحقيقة قدر ذرة ملح».

«لا تضحك ولا تسخر بما ورثناه انا وانت عن جدودنا». اجابته نان وهي تبسم بحنان.
كانت ساندي تفكر ان الدم الغجري بينها يمكن ان يكون السبب في سواد الشعر والعينين عندهما. علم اجناس البشر واصوله يثبت ذلك، اذن نظريتها صحيحة بالنسبة الى عائلة كالدويل من ان احد جدودهم قدم من الشرق الأوسط. ان كلمة غجري تشتق من كلمة مصري. وهي كلمة اعطيت لجماعة من الرحل قدموا الى انكلترا في القرن السادس عشر. وربما يكون الشعر الأسود والعينان السوداوان وراثة عن جماعة استوطنت اسكوتلندا في قديم الزمان تعرف بالبكتس (هم جماعة غريبة لا يعرف عنهم الا القليل تاريخياً).

وكانت ساندي قد سرحت برحلة عبر التاريخ، كعادتها، فلم تسمع ما دار من حوار بين ليماندا ونان. واجفقت قليلاً حين ابعد ليماندا كرسيه ليقوم، بعد ان اكمل طعامه. قال يخاطب نان وهو واقف:

«هل عندك مكان لتنام فيه ساندي؟».

«نعم في الغرفة المجاورة لجناح الطفل».

«اظنك ستقولين لي انك عرفت انها قادمة الى هنا كي تساعد مرثا في رعاية الصغير، مع ان مرثا املت كلياً ان تخبرني انها دعت ابنة عمتها لتبقى معنا لنهاية الصيف». كان ليماندي يخاطب نان بجفاء وقد رفع حاجبيه وانفجرت اساريره عن ابتسامة ساخرة.

اتسعت عينا نان من المفاجأة وجالت نظرها بسرعة بين ساندي وليماندي واجابت:

«كلا. كلا لم اعرف. فقط لأنني ظننت ان وجودها قرب غرفة ابنة خالها مطمئن لها».

صمتت نان وبدأ على وجهها هم كبير. ثم خاطبته بسرعة:

«لن تعيدها الى انكلترا؟ لن تحرمها ضيافتك لأن مرثا لم تصرح لك حقيقة رغبتها؟».

«لن يعيدني الى بلدي بل انا التي اخترت العودة بنفسي. سأعود غداً بعد ان ارى ابنة خالي. سأعود بعد ان أعرف منها حقيقة ما حصل». دافعت ساندي عن كرامتها بصوت متهدج واكملت «متى يرحل الباص من كيركتون الى دمغريز غداً؟».

وران صمت لفترة بين الثلاثة. حلق ليماندي لأول مرة في وجه ساندي. انها المرة الأولى التي يوجه اليها نظره ويرى وجهها بوضوح. مرت فترة وجيزة وهو يتفحصها بعينه السوداءوين. احست ساندي ثقل نظراته فوق جسمها كله. تسربت حمرة الخجل الى وجهها الشديد البياض. كان ليماندي يفكر بالحل السريع لهذه المشكلة الجديدة. وبسرعة كمن توصل الى قرار مهم قال:

«لا لزوم لذهابك بالباص غداً. يمكنك البقاء اسبوعين فقط تساعدن فيها مرثا في رعاية الصبي. تذكرني دائماً اني انا مضيفك وانا دعوتك للبقاء في منزلي».

كانت لهجته آمرة، وهذا جزء من طبيعته، ولكن وجهه الصارم لم يكن خالياً من الطرافة وعدم الاكتراث والبرودة كالسابق...

«شكراً». قالت ساندي ببطء وانكسار. تحيرت هل عليها ان تنحني له

اجلالاً لكرمه. لم يجيبها ليماندي على شكرها. هز رأسه ودار خارجاً من المطبخ. نظرت ساندي الى نان نظرة استغراب. كانت نان تخفي ضحكة واضحة على وجهها وهي تصب المزيد من الشاي لنفسها. ثم قالت:

«يستطيع ليماندي ان يكون متعجرفاً حين يشاء. كنت اتساءل متى يعود لطبيعته الأمرة من جديد. منذ حضرت ابنة خالك مرثا الى هنا، وجلبت معها خبر موت كروفورد بقي ليماندي منطوياً على نفسه، هادئاً وحزيناً. لم يكن احد يستطيع التكلم معه. الانباء المحزنة قلبت كيانه وغرق في حزن شديد على اخيه. بعد ذلك مر بفترة شك في صحة زواج اخيه بابنة خالك!».

قاطعتها ساندي:

«اوه. لماذا الشك؟».

«لم يكن لديه علم بزواج اخيه وظن ان مرثا محتالة ومزيفة».

ودافعت ساندي عن ابنة خالها قائلة:

«لا يمكن لمرثا ان تفعل ذلك. انا واثقة من صدقها. كانت زوجة كروفورد بالتأكيد».

«تأكد ليماندي من صدقها بعد ان رأى وثيقة زواجها. في البداية لم يصدقها».

«كم هو كثير الشك!».

«انه ليس شكاً بقدر ما هو حذر. ان ليماندي يعرف اخاه اشد المعرفة، كما تعرفين انت ابنة خالك. كان من المحتمل ان يعيش كروفورد مع مرثا بدون زواج وبالتالي يكون الصبي ولداً غير شرعي».

«افهم الآن تفكيره وسبب حذره».

سرت من شرح نان لهذه الأمور الدقيقة.

«هل تعرفين كروفورد؟» سألتها نان تستوضحها المزيد من المعلومات لأن ذلك من صلب اختصاص عملها في منزل دانكريغان واسراره. واكملت «هل حضرت زواجهما؟».

«كلا. لم اكن موجودة يوم تزوجا. كان الزواج في باريس حيث كانت تعمل مرثا عارضة ازياء لاحد بيوت الأزياء هناك. ذات ليلة التقت

كروفورد في حفلة وتزوجا بعد اللقاء بثلاثة ايام.

«نعم» اومأت نان برأسها موافقة «هذا ما قالته لنا مرنا. كان زواجهما رومانظيقياً الا تظنين ذلك؟»

«وافقك رأيك» اجابت ساندي وارذفت «ولم نرها بعد ذلك في انكلترا الا يوم عادت مع ديرميد ابنها في الربيع الماضي بعد الحادث المشؤوم. كانا يقتتلان كثيراً».

«نعم» كان كروفورد يحب التنقل ويكره الاستقرار. ترك دانكريغان بعد ان غادر ليماندا المنزل في دانكريغان».

تهددت نان وسرحت عبر ذكرياتها. قامت ساندي تجمع الصحون الوسخة. كان عليها ان تبدي رغبتها في المعاونة في اعمال المنزل بالرغم من شدة تعبها. اعترضتها نان بلطف: «اتركي، لا عليك».

«لكنني ارجب في مساعدتك فترة اقامتي هنا». وتمتمت «لو ان مرنا استأذنت السيد كالدويل قبل دعوتي لتمضية الصيف هنا؟ الا يكفيه ان يعيّلها هي وابنها؟ هو الآن مثقل ايضاً بضيافتي!» كانت تجمع بقية الصحون وتضعها في المغسلة. «علي ان اعمل لقاء سكتي ومعيشتي هنا...»

«لا تهتمي. ارجو ان لا يكون ليماندا قد اثقلتك بشرح اعبائه المالية؟» قالت نان وهي تضحك.

«نعم ذكر لي ان عليه ديوناً متراكمة ورثها عن والده وهو يعمل لسدادها. كذلك ذكر لي ان السقف يرشح في فصل الشتاء ويحتاج للترميم. ثم لحظت بنفسها انه يحتاج لسيارة جديدة بدل سيارته المكسرة والمحطمة التي يستعملها و...» كانت ساندي تتكلم وهي مهمومة. فتحت حنفية الماء الساخن وبدأت عملية جلي الصحون المتراكمة امامها. «كل ذلك صحيح» اجابت نان وهي تحمل الى ساندي بقية الصحون الوسخة لتنظفها. «لقد تعب كثيراً خلال السنتين الماضيتين حتى تمكن من ايفاء جميع ديون كافن. لكنه انتهى من هذه الازمة، تقريباً».

«سيدة كوري...!»

«نادي نان. الكل يناديني بهذا الاسم».

«اذن. هل لديك فكرة. لماذا لم تستأذنه مرنا قبل ان تدعوني؟» «لأنها تخاف منه قليلاً».

«هذا ما قالته لي امي وهي تقرأ بين السطور في رسالة مرنا لي. لكن لماذا تخافه؟»

«اعتقد لشدة الشبه بينه وبين اخيه في المظهر الخارجي ويختلف معه كثيراً في الطباع والاخلاق. انه غامض وهذا يخيفها. الا توافقين؟»

«الغموض يخيف لفترة قصيرة». اجابتها ساندي ثم سالتها «ماذا تعرفين عن كروفورد؟»

«كان يخالف في طباعه كلياً شقيقه ليماندا. كان كثير الحركة، طائشاً، متكبراً، سريع الغضب شديد الحساسية، ويستولي على محبتك لدقيقة ويثير غضبك بطيشه السريع دقيقة ثانية. كان الابن المفضل لوالده كافن. لكنها تشاجرا اخر المطاف».

تهددت نان وهي تعيد هذه الذكريات واكملت:

«لو كتب كروفورد لوالده يعلمه بولادة حفيده لكان كل شيء هنا قد تغير وربما رأب الصدع الذي اتسع بينهما مع مرور الأيام».

تمنت ساندي لو تعرف سبب شجارهما ولكنها احست ان نان انزعجت من اثاره هذه الذكريات الاليمة. اكملت ساندي جلي الصحون بدون حديث. وعندما انتهت منها همت بتنشيفها ولكن نان اصبرت عليها بالتوقف قائلة:

«لقد عملت اكثر مما يجب. ارى انك منهوكة القوى من شدة التعب. سأريك غرفتك لتنامي».

«اود رؤية ابنة خالي قبل ان انام».

«سترينها في الصباح الباكر. كل شيء يكون في الصباح على ما يرام. الشمس المشرقة فوق الرمال. الطيور المزققة. سأخبر مرنا بوصولك حين تحضر من سهرتها. تعالي الان معي الى الطابق العلوي».

اقتنعت ساندي. لحقت بها الى الطابق الثاني. جناح الطفل يقع في اقصى الممر بعد ثلاث غرف نوم. واحدة ليلعب فيها الصبي وواحدة لمرنا وقربها غرفة ساندي.

«هنا الحمام». قالت نان وهي تشير الى باب مفتوح يخرج منه نور

ضئيل.

«كان ديريدي يخاف العتمة وقرقة ابواب القصر وصريرها. ابقيت له هذا الضوء في الليل. ستامين في هذه الغرفة القريبة من غرفته. هي غرفة صغيرة ولكنها تطل على الحصن القديم ومصب النهر. هل هناك اي سؤال قبل ان اتركك؟»

«نعم. لدي سؤالان من فضلك. اذا لم اعرف اجابتهما لن انام!»
«اسألي فوراً. انا افهمك».

«اولاً: من هو جوني؟»

«هو ابني الوحيد. شاب مهذب ويصغرك بقليل. عمره واحد وعشرون سنة. عاش كل حياته هنا. حضرت الى القصر بعد ولادته لنعيش ونستقر هنا. لم اكن املك اي شيء. قتل والد جوني بحادث. صدمه جرار في المزرعة ومرفوقه. كنا نستأجر من كافن مزرعة صغيرة. سيعمل جوني في خدمة ليماندا فترة الصيف فقط. هو مثلك طالب جامعي. لديه بعض الاصدقاء في نادي اليخوت. دعا مرثا الليلة لمصاحبتة ليمرحا قليلاً. اسألي سؤالك الثاني!»

«ماذا يعمل السيد كالدويل؟»

«هو ملاك مع انه لا يملك الكثير من الأراضي، باع عدة مزارع كانت تؤجر لمزارعين يعملون عنده. كذلك باع الأراضي الواقعة في الناحية الثانية الى البناء، باع بعض املاكه ليسدد بشتها بعض الدين. كذلك استعمل قسماً اخر من المال للبدء في استصلاح اراضيه الزراعية».
«اقصد ماذا يفعل للأرض لتصبح منتجة وتعطيه المال؟» كانت ساندي تستوضحها في محاولة لمشاركة ليماندا همومه المالية. واكبرها في نظرها اعباء اعالة مرثا وابنها.

«لديه قطيع من الابقار والخراف وبعض الحيوانات اللبونة الاخرى. لديه فراخ. والان بدأ بتربية الارانب.» اجابتها نان وهي تبسم ابتسامة عذبة حنونة.

«انه مزارع!»

«نعم. هذا ما يسمى. كان والده كافن يفضل في الجيش مثله. لكن ليماندا كان يرغب في تربية الحيوانات المختلفة. ادارة المزرعة همه. كان

دائم الخلاف مع والده بسبب ادارة الاملاك مما اضطر ليماندا لترك دانكريغان. تنقل في بلدان مختلفة في بريطانيا يعمل في المزارع. هل ترغبين في المزيد من الاسئلة يا عزيزتي؟»
«شكراً. هذا يفسر الآن وجود العجل الصغير في المقعد الخلفي في السيارة».

سرت ساندي ان بعض الغموض بدأ ينجلي حولها.

«عمت مساء. ساتركك لتنامي وتصبحين على خير».

كان الفراش قاسياً وضيقاً ولكنه نظيف. رائحة الشراشف ذكية. نامت ساندي فوراً. حلمت قبيل انبلاج الضوء انها سجينه في قبو الحصن. حضر لنجدتها من سجنها فارس يمتطي حصاناً اسود ويلبس درعاً من القرون الوسطى. كانت اوسمة الشرف تزين صدره وفي خوذته ريشة زاهية. ترحل عن حصانه ومشى شاهراً سيفه بيمينه. ولما وصل اليها رفع قناعه عن وجهه. نظرت اليه لتتعرف الى مخلصها. وجدت نفسها تحلق في عيني ليماندا كالدويل السوداوين.

٢- الزائرة!

استفاقت ساندي مذعورة من حلمها، لتجد نفسها وحيدة في غرفة نوم صغيرة. هذا هو اليوم الأول لها في دانكريغان. كانت أشعة الشمس تدخل الغرفة من فتحة صغيرة في الستارة المخملية الخضراء العتيقة، التي تغطي قسماً من النافذة لا يتعدى أطرافها. سمعت ساندي زقزقة عصافير صغيرة يغرد. مع صوت العصافير أصوات أخرى متشابهة. لمطرقة حديدية تغل الحديد وأصوات رجال يتكلمون. صوت محرك سيارة بدأ يدور. وشاحنة أو جرار ثقيل يسير فوق الأرض.

قفزت ساندي من فراشها ونظرت من النافذة بعد أن فتحت الستارة. كانت غرفتها تقع في مؤخرة المنزل وتشرف على ساحة خلفية تحيط بها ابنية زراعية بيضاء. كانت شاحنة لنقل الحليب تحاول الخروج من الساحة إلى الطريق العام. يقف بالقرب من الشاحنة شاب يلبس بنطلون جينز وقميصاً بدون اكمام وفوقه كتزة صوفية خفيفة قبتها مفتوحة على شكل سبعة، ويتتعل جزمة مطاطية، يراقب خروج شاحنة الحليب بحمولتها. ولما خرجت الشاحنة وضع أصابعه في فمه وصفر. وللغور ظهر كلب لونه اسود يخالطه بياض. كلمه الشاب ومشى وأياه إلى بناية مجاورة، دخلها. وبعد ثوان قليلة خرج من البناية قطع من الابقاء والماشية، بعضها اسود وابيض، تمشي، مترنحة ببطء. نظرت ساندي إلى البعيد خلف الساحة. رأت حقلاً أخضر فسيحاً وفي وسطه حصن عال، حجارته رمادية تلمع تحت أشعة الشمس. الحصن موجود فوق هضبة من العشب الاخضر وتجري بجانبه المياه الزرقاء تتراقص مع أشعة الشمس حيث يصب النهر.

الحصن مربع وفيه نوافذ ضيقة مشقوقة طولاً. وجود الحصن ينبئ عن سلطة وعظمة وقوة عائلة كالدويل في الماضي. شعور مشير انتاب ساندي وهي تراقب الحصن من بعيد. هو الشعور نفسه الذي يخالطها كلما وجدت نفسها في مكان أثري تاريخي.

سمعت ساندي صغيراً مرة ثانية، في الباحة. التفتت إلى مصدر الصغير. كان الشاب قد خرج من الزريبة ينظر إليها، وجهه مكشراً عن ابتسامة عريضة. وبعد أن استرعى انتباهها إليه، بادرها بحياً إياها وهو يلوح لها بيده. ردت له تحيته بأن لوحته له يدها أيضاً وتراجعت إلى داخل غرفتها.

لبست ثيابها بسرعة. وما إن انتهت حتى سمعت طرقات خفيفاً على بابها. فتحت الباب. كانت نان تحمل لها فنجاناً من الشاي. وكان ديرميد الصغير ذو العامين، ممسكاً بثوبها الطويل القديم. كان شعرها جديلة طويلة على كتفها. وما إن لمحت ساندي ديرميد حتى أخفى وجهه خلف نان.

«جلبت لك فنجاناً من الشاي. هل نمت جيداً؟»
«شكراً. نعم نمت فوراً. شكراً لاحتضارك فنجان الشاي. أرجو أن لا تفعل ذلك كل يوم. أنا معتادة أن استيقظ باكراً.» قالت ساندي لما رأت الصغير، أهلاً ديرميد، هل تذكرني؟»

نظر الصغير إليها وهز رأسه إيجاباً. نظرت ساندي إلى شعره الاسود وقالت في نفسها، لا بد أنه ورث سواد شعره عن والده وعائلة كالدويل. اما عيناه الذهبيتان الواسعتان فقد ورثهما عن مرتا. عيناه مثل عيني الهرة. لا يرف له جفن إذا حدق.

«سأخذ ديرميد إلى المطبخ من أجل فطوره.» مرتا ما تزال نائمة. لقد عادت الباحة مع جوني بعد منتصف الليل.»
«لكن جوني استفاق باكراً!»

«نعم. لقد أيقظه ليemand ليرعى الابقار. هذا عمله لهذا الصيف. عليه رعاية البقر وحليها وشحن حليها للسوق كل صباح. هل تحبين العصيدة مع الزبدة ثم اللحم مع البيض للفطور؟»
«هذا كثيراً.»

«سأطبخ من أجل جوني ويمكنك مشاركة فطوره. ليماند تناول فطوره

بأكرأ وذهب الى كيركاد يرايت سيغيب اليوم بطوله . لديه اجتماع مع
اعضاء المجلس البلدي . انتهت نان تفصيلاتها ولست شعر ديرميد وهي
تقول له «تعال، اتبعني، سنتناول فطور الصباح» .

نزلت ساندي الى المطبخ وكان قد سبقها جوني الى طاولة الطعام وبدأ
يتناول فطوره . كذلك كان ديرميد يجلس على كرسي خشبي عال قديم وقد
وضعت نان فوطه حول عنقه، يحاول أن يطعم نفسه بجهد جهيد .
«اجلسي يا ساندي» قالت لها نان وهي تضع امامها صحن العصيدة .
«هذا ابني جوني، هذه ساندي ابنة عمه مرتا يا بني» .

«أهلاً» قال الشاب وهويكشر عن أسنانه بابتسامة عريضة . شعره أسود
قصير وقد انسدت غرة فوق جبينه من الأمام . تكاونه كبيرة ولا يشبه
والدته أوليماندا . «أهلاً بك في دانكريغان . الظاهر أن قدومك خير علينا
فقد جلبت معك الطقوس الجيد . قالت لي مرتا أنك تخرجت لتوك من
الجامعة في علم التاريخ . ماذا ستفعلين بعد التخرج؟ هل ستدرسين في
مدرسة؟» .

«كلا، لن أعمل . أحاول أن اتابع دراستي الجامعية للحصول على درجة
علمية أخرى» .

«ماذا تدرس أنت يا جوني؟» .
كان حديثها معه سهلاً ومنفتحاً . شخصيته لينة لا غموض أو قساوة
فيها .

«أدرس علم الاحراش . سأخرج بعد سنة من الجامعة، أحب أن أنجول
في العالم قليلاً وأعمل في مدن مختلفة، كما فعل ليماندا، لاكتسب خبرة
ضرورية قبل أن أستقر . ستحيين هذا المكان إذا كنت تهتمين بعلم
التاريخ . توجد آثار قديمة عديدة هنا . لا تمشين خطوتين الآ وتقعين على آثار
او بقايا آثار» .
اجابها بلباقة :

«رأيت الحصن هذا الصباح وأظن انه بني في القرن الرابع عشر . هل
تعلم متى امتلك آل كالدويل هذا المكان؟» .
«لا، لا تسأليني . أنا لا أعرف أكثر مما دار من منتصف القرن العشرين
فقط» .

اجابها وهو يضحك ثم نظر الى والدته وقال :
«هل تعرفين يا اماء متى حضر مؤسس عائلة كالدويل الى هنا؟» . وضع
صحنه بعيداً وتناول صحن البيض واللحم .
اجابت نان :

«قال لي كافن ان العائلة تنحدر من صلب فارس نورماندي يدعى
سيرغاي . قدم لمساعدة الملك داوود الأول من أجل تثبيت حكمه في
سكوتلندا» .

«كان ذلك حوالي القرن الثاني عشر» . علقت ساندي . كانت مسرورة
من أن نظريتها الاولى برهنت عن صحتها .
«نعم هذا صحيح» اجابت نان ثم اكملت «كان كافن يقول انه وجد
عدة ابنية في الطرف الآخر، ويعتقد ان هناك مستوطنين قبل آل كالدويل .
وقد بدأ حفريات عدة في الأرض للاستكشاف والتنقيب» .

«تنقيب عن الآثار» صرخت ساندي بحماس .
«نعم . كان يجرب بيديه من وقت لآخر يحاول العثور على جواهر قديمة
او ادوات فخارية مما يساعده في معرفة تاريخ المستوطنين الأوائل هنا . حاول
كافن ان يكتب تاريخ حصن دانكريغان» .
«ماذا حل بمخطوطاته؟ هل نشرها؟» .

سألها ساندي بالحاح .
«كلا . مات قبل انجازها . هي موجودة في المكتبة . صفحات
وصفحات من الكتابة» .

«هل يمكنني قراءتها؟ سألتها ساندي ثم نظرت الى جوني لأن نان
استدارت الى جانب الموقد . رفع جوني كتفيه اشارة انه لا يعرف وقال :
«عليك استئذان الرئيس هنا، هو الفارس الحالي في دانكريغان . المكتبة
في حالة كبيرة من الفوضى . كان الرجل العجوز كافن لا يسمح لأحد
بدخولها، ولكنني أمل ان لا يكون علم التاريخ هو همك الوحيد؟ هل قمت
بأية رحلة بحرية في السابق؟» .

«نعم . غمك أنا وأخي زورق تجذيف صغيراً نستعمله في عطلة نهاية
الاسبوع . نجوب فيه الشاطئ الجنوبي بحراً» .
«اذن ربما تبخرين هنا أيضاً . لي صديق يدعى رون كارسن .

اشترى مؤخراً مركباً شراعياً ويأمل أن يستعمله في السباق ما رأيك في مشاركتنا رحلتنا هذا الأحد؟

«أحب ان أشارككم ولكني لا أعرف برنامج عملي بعد. لقد حضرت الى هنا لرعاية ديرميد من وقت لآخر ولست في عطلة صيفية للراحة والاستجمام!»

ودهش جوني كما دهش ليماندا من قبل، وتعجب ان تكون مرتا في حاجة لمن يساعدها في رعاية ديرميد. ثم قال:

«امراة عظيمة هي مرتا. اليس كذلك؟ لا وقت لديها لتفاهة تحرير وحقوق المرأة أو مساواتها بالرجل. ههها ان تحافظ على جمالها وتلفت الانظار اليها وتظهرها بمظهر لائق وفاتن. هي صعبة المنال. ثم اردف يسألها: «كم ستمكثين هنا؟»

«لا أعرف بعد، ذلك يتوقف...» لم تعرف ساندي بماذا تنادي ليماندا. اذا كان فارساً حقيقياً فعليها مناداته بسير ليماندا...

«يتوقف على الرئيس» أكمل جوني عنها جملتها وقد اتسعت تكشيرته. «هل هو فارس حقاً؟»

«أفضل من فارس. لقد ورث لقب بارون عن جدوده».

شرحت نان لها وهي تضع أمامها صحن البيض مع اللحم وأكملت حديثها: «هل ترغب في المزيد من الشاي يا جوني؟»

«كلا شكرا يا أماء. علي أن أعود لعملي. أحد الجارات يتعيني، ولقد وعدت ليماندا بتصليحه».

انتهت ساندي فطورها وساعدت ديرميد في طعامه. حملت الصحن الوسخة الى المغسلة من أجل جليها لكن نان رفضت أن تدعها تنظفها قائلة:

«كلا. كلا يا صغيرتي. اتركي الصغير معي واحلي هذه الصينية لمرتا في غرفتها. ستفاجئها بمفاجأة صغيرة. ستجدينها في غرفتها مقابل غرفة الصغير. سلمى عليها وثرثري وإياها قليلاً».

ظهر الممر رثا بالياً أكثر من السابق في وضح النهار. تسلقت ساندي السلم العارية من السجاد وأجالت بصرها في اطارات الصور الزيتية المطلية بالذهب المعلقة على الجدران. كلها رجال سود العيون والشعر.

كان يرتدي لباساً عسكرياً لفارس في الجيش. كتب اسمه في أسفل صورته وعليها تحديد وظيفته في الجيش، فارس دانكريغان.

دخلت غرفة مرتا بلطف. مشت الى طاولة قرب السرير ووضعت عليها الصينية. حاولت فتح الستائر عن النوافذ. كانت غرفة مرتا تطل على المدخل الرئيسي للمنزل. الى جانبي الممر المؤدي الى المنزل، عشب أخضر ترعى البقرات السود والبيض منه مسرورة راضية. بعضها يتمشى في الممر بدون حرج. خلف الممر منحدر تغطيه شجيرات شوكيه صغيرة ملفوفة، وقربها بعض شجرات الخور الطويلة وقد مالت باتجاه الرياح. السماء صافية وزرقتها لامعة.

«ساندي، وصلت، كم أنا سعيدة برؤيتك!»

استيقظت مرتا لتوها. جلست في سرير نحاسي قديم ترتدي غلالة نوم شفافة، من اللون الاخضر الفاتح يكشف عن احد كتفيها. جسمها البض ووجهها المستطيل الجميل يتوجه شعرها الأحمر الذهبي يتموج بثورة حول عنقها الفاتن. رفعت يديها لاستقبال ساندي بالعناق ولفورها مشت ساندي نحوها وجلست الى حافة السرير لتعانقها.

«جلبت لك فطورك. اسرعي بأكله قبل أن يبرد». قالت لها ساندي بعد أن انتهت من العناق والترحيب. حملت الصينية ووضعتها أمامها.

«شكراً، أنت حملت فطورتي!»

«هي فكرة نان».

«هل ديرميد معها؟»

«نعم، وعدت ان ترعاه في غيبي عندك».

«حسناً فعلت. يمكنني الآن التحدث اليك حديثاً من القلب للقلب. وجودك معنا سيكون مفيداً. كم تمنيت ان اجد قريباً لي أتكلم معه بصراحة. نان عطوفة وحنونة ولكنها غريبة عني. هي لا تتحمل مني أي انتقاد أبديه هنا بخصوص المنزل أو عائلة آل كالدويل. سكنت مرتا لتأكل بعض الخبز المحمص ثم أكملت «ما رأيك في المنزل يا ساندي؟ ألا تجدته صرعة. مفروشاتة القديمة أثرية عفنة وبالية. انواره خافتة. كل شيء هنا على الطراز القوطي (نشأ هذا الطراز في فرنسا وانتشر في أوروبا الغربية في منتصف القرن الثاني عشر الى السادس عشر). كل شيء في هذا المنزل

يشير الى مظاهر العظمة والغطرسة للسيد الاعلى، والحاكم المطلق.
«تقصدين سير ليماندا!»

«نعم هو من أعني. أرجوك لا تناديه سير يا ساندي. هو صحيح متغطرس ومتكبر وغامض ولكنه يكره الشكليات. اعتاد ان يعيش على طبيعته عندما سكن في كندا، وغيرها من البلاد التي عمل فيها. كيف كان مشوار الطريق معه من دمفريز؟»

«ليس كما يجب يا مرتا. ارتبكت جداً لما عرفت أنه لا يعلم أي شيء عن موضوع حضوري للعمل هنا فترة الصيف. كان عليك استئذانه قبل دعوتي.»

«حدثت مرتا بالسقف، عيناها الواسعتان جامدتان كعيني قطرة. قالت: كيف عرفت أنني لم أسأله؟»

«شعرت ببرودة في استقبالي ونفور من قدومي. واجهته بالحقيقة وسأله اذا كان يسمح لي بالبقاء فترة الصيف.»

«أوه يا ساندي. كيف تخذليتي هكذا؟»

«أنا أخذلك؟ أنا لم أخذلك بل أنت التي وضعتني في مأزق حرج. كيف لي ان اعرف أنك لم تستأذنيه؟ أو لم تخبريه حتى بالأمر؟ ما علينا الآن. اخبريني يا مرتا، لماذا لم تسأليه؟ هذه ليست من صفاتك ولا طباعك التي تربيت عليها؟»

«صحيح أنني لم أسأله وذلك لأنني كنت اخاف ان يرفض لي طلبي. قلت في نفسي، عندما تحضرين الى هنا سيدعن للأمر الواقع ويقبل أن تبقي. وهذا ما حصل معي أيضاً عندما حضرت الى بابي مع ابني. سمح لي بالبقاء لفترة قصيرة فقط... وها أنا ما زلت هنا للآن، وسأبقى حتى أحصل منه على كل ما أبتغي.»

«وصمت ساندي بعد ان سمعت خطة ابنة خالها وقرارها الشديد. كانت تراقبها وهي تأكل فطورها، قالت ساندي في نفسها: ان مرتا طفلة مدللة اعتادت ان تحصل على كل رغباتها. فطورها تتناوله في الفراش الكل في خدمتها... هذه الفئة من الناس تعيش لنفسها وتحصل في النهاية على كل رغباتها في الحياة ولو على حساب الآخرين. ثم قالت لها: «ألسنت يا مرتا طفيلية تمتصين تعب شقيق زوجك وتعيشين عائلة عليه

انت وابنتك؟»

«خذني الصينية، ضعها هناك يا حبيبي». قالت مرتا بلهجة أمرة وأكملت:

«اجلسي لي فرشاة شعري من فوق طاولة الزينة. سأمشط شعري بينما نكمل حديثنا. ساندي حبيبي، كذلك اجلسي لي المرأة وامسكيها لي بينما انا امشط شعري.»

«عملت ساندي ما طلب منها وهي تبتسم لنفسها. الظاهر انها ستكون وصيفة خصوصية لابنة خالها بالاضافة الى مربية ابنها. ثم قالت مخاطبة مرتا:

«لم تحببي على سؤالتي؟»

«كلا. لا اعتقد أنني عالة عليه» رمقتها مرتا بنظرة مزعجة عاتبة وأكملت «زوجي كروفورد ينتمي الى هذا المكان مثل ليماندا. وأنا ارملة كروفورد يحق لي البقاء هنا كما يحق لابني». ثم رمت فرشاة شعرها جانباً ولمست كف ساندي وأكملت: «لا تهتمي بهذه الامور ولا تنزعجي. يمكنك البقاء بدون خوف. ليماندا سيرحب بك مثلي بعد ان يرى بنفسه كم انت بارعة في رعاية ديرميد.»

أجابتها ساندي:

«انا لست مهتمة، لقد دعاني ليماندا بنفسه للبقاء هنا فترة أسبوعين». «دعاك هو بنفسه! اذن لماذا كل هذا الجدل؟»

«ما يزعجني هو شعوري بأن عالة عليه. بل كلنا عالة عليه. مرتا! لماذا لا تحضرين معي الى هامشير؟ يمكنك الحصول على عمل وهذا أشرف لك من ان تكوني طفيلية عليه.»

«أنا أجد عملاً أوه، لا تقنعيني يا ساندي فانا لا أستطيع أن أعمل سوى عارضة أزياء. وهذا يعني أن أعمل ربيعياً كي استعيد شكلي ونحافتي. ثم من يؤكد لي الحصول على عمل؟ ومن يرعى ديرميد في غيابي؟»

«عمتك جين ترعاه. ألم تطلب اليك البقاء عندنا يوم وصلت بعد وفاة زوجك؟»

«كلا يا ساندي. سأبقى هنا ولن أعمل». اكدت مرتا عزمها على تنفيذ

خطتها ثم تابعت: «لقد اكتشفت هنا انني انسانة مهمة. انت تعرفين حب الظهور عندي. ان اسم عائلة كالدويل بالرغم من ماضيها المريب وحاضرها المقلس لأن وضعها المالي مترد، هي عائلة عريقة ومعروفة في المنطقة ولها وزنها بين العائلات. ومع أن السير كافن كان متطرفاً ومتعزلاً عن الناس إلا أنه بطل من أبطال الجيش. ولقد انتخب ليماندا مؤخراً عضواً في المجلس البلدي».

«لم اكن اعرف ان الوضع الاجتماعي يهيك لهذا الحد».

«صحيح. لم اكن اهتم له بالسابق. لكن اليوم وبعد تجربتي هنا، عرفت قيمته ولمست لمس اليد أهميته وما يعنيه. الجميع يرغبون بالتعرف اليّ لأنني أرملة كروفورد كالدويل وكنت السير كافن كالدويل وزوجة اخ السير ليماندا كالدويل. لهذا ساقبى، سأحاول اقناع ليماندا باعطاء ديرميد حصّة أبيه في الميراث. وبعد ذلك سأكون سعيدة جداً».

«لكن يا مرثا، ليس هناك ميراث أو مال قد تركه كافن، فقط هذه الاملاك وهي من نصيب الابن البكر».

«كيف عرفت ذلك؟».

«لقد اخبرني بذلك ليماندا ونحن بطريقنا الى هنا قادمين من دمغريز».

«يا الهي! لقد تكلم ليماندا معك كثيراً!». ثم حولت مرثا الحديث الى ناحية اخرى وقالت: «أنا اعرف ان لا وصية مكتوبة ولا شيء موصى لزوجي كروفورد، ولكن ذلك لا يعني ان عمه لا يمكنه مساعدته. كل ما أبغيه لابني علماً لا نقاً في مدرسة محترمة، مثل والده كروفورد، ولا بأس لو دفع ليماندا مصاريف تعليمه من جيبه. ان ذلك دين عليه يدفعه لابن شقيقه التوام. على كل، ابني هو الوريث الوحيد الآن لهذه الاملاك».

«اظن ذلك». تمتعت ساندي وهي مطرقة تفكر في خطط ابنة خالتها ثم قالت: «ما هو دوري في مخططاتك؟ كيف يمكنني مساعدتك؟».

«يمكنك مساعدة ديرميد على تحسين تصرفاته». تهتدت مرثا وكأن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلها واكملت «ان تصرفاته بغیضة وردينة. دائماً يسيء التصرف امام عمه ليماندا ولا يوجد تقارب بينهما. يوم كنا عندكم في هامشير لاحظت انه يستمع اليك ويتصرف جيداً امام الآخرين، حسب ارشاداتك. كم يسرني لو تفهميه ان علاقته الحميدة بعمه تهمني اكثر بكثير

من حسن انسجامه مع بوب سكوت أو ول برودي.
«من هما؟».

«هما اثنان من عمال المزرعة. هو يحب ايضاً جوني كثيراً».

«اظنهم يهتمون به ويتكلمون معه ويشاركونه لعبه». قالت ساندي «ألا يهتم به ليماندا؟».

«اظنه يحبه، ولكن ديرميد يهرب منه كلياً التقاه ويصرخ، حضر القاتل الأزرق».

رفعت مرثا حاجبيها اشارة لجهلها الاسباب، ثم نظرت نظرة فاحصة الى وجه ساندي وقالت:

«الظاهر انك استطعت منذ البداية ان تفاهمي مع فارس دانكريغان، ولهذا السبب عليك ان تقنعيه في تلبية طلبي. عليك ان تليينه ليعطف عليّ وعلي ابني».

«أنا أليئه؟ كيف؟».

«أوه يا ساندي كم أنت بريئة. يمكنك تليينه باستعمال سحرك الانثوي عليه. لقد دعاك ليماندا للبقاء هنا، وهذه اشارة جيدة لنجاحك».

«انا! لا استطيع! ولا أريد أن أفعل أي شيء من هذا القبيل. وتراجعت ساندي الى الوراء خائفة وقالت: انا لست من ذلك الصنف من البنات! لماذا لا تجربين أنت بنفسك تليينه كما تقولين، أنت اكثر خبرة مني في هذا المضمار».

ضحكت مرثا ضحكة مثيرة لها مئة معنى ومعنى. ضحكتها تلك تدبير رؤوس الرجال مهما بلغ عفوانهم، كانت ساندي تفكر مهمومة، التفتت اليها مرثا وقالت:

«جربت سحري عليه يا حبيبي. فلم أفلح. انه صلب وطيته تحتلف عن طينة شقيقه كروفورد. من الصعب عليّ ايجاد نقطة ضعفه. وبما أنك من طينة مختلفة عن بقية النساء، ربما تفلحين أنت حيث فشلت أنا، ربما تعرفين نقطة ضعفه. هو لا ينفر من الجنس اللطيف وجاذبيته، وله شهرة واسعة في هذا المضمار مع الفتيات هنا قبل رحيله الى الخارج... أنت يا ساندي جذابة ومثيرة اذا خلعت بنطلونك الجينز ولبست فستاناً يبين سحر انوثتك».

«لكنني ارتاح في البطلون وأجده اقتصادياً». اجابته ساندني بحدة ونزق. وضعت المرأة التي كانت تحملها لمرتا لتمشط شعرها ووقفت لتخرج من الغرفة بعد ان شعرت ان المحادثة بينها أصبحت مزعجة. حملت الصينية ونظرت الى ابنة خالها التي ما تزال في فراشها وقالت: «يمكنك النهوض. ستصبحين سمينة اكثر اذا بقيت وقتاً أطول في الفراش».

تمطت مرثا في فراشها وقلبت شفتيها علامة الامتعاض من تعليقها وقالت:

«فهمت قصدك يا ابنة عمتي. أحذرك يا ساندني ان يوماً قريباً سيأتي وتتمنين رجلاً يراك امرأة مميزة. كلنا نمر بهذه التجربة أجلاً أم عاجلاً. هنا تكمن المشكلة عندئذ».

«ماذا ترغبين لي أن افعل مع ديرميد اليوم؟» سألتها ساندني وهي تتجاهل تشعب الحديث وانحرافه عن طريقه الاصيلي. ثم فتحت الباب لتخرج.

«خذي الى الشاطئ». انه يحب اللعب هناك. سأراك فيها بعد». كان ديرميد فرحاً وهو يقود ساندني الى الشاطئ. كان يقفز صامتاً ويده الصغيرة في يدها، بينما يعمل في اليد الأخرى سطلاً ومجرقة صغيرة. وصلت وأياه الى خليج صغير حيث المياه نظيفة تراقص فوق الرمال. تحيط بعض الصخور الرملية بالخليج. أطفال وشباب يرحلون على الشاطئ. وجد ديرميد اصدقاءه وهما، فتاة صغيرة من عمره. شعرها اشقر حريري منسدل على كتفيها وعيناها زرقاوان واسعتان واسمها لورنا وشقيقها ايوان في الثالثة والنصف من عمره. شعره احمر بلون الصدا ووجهه مليء بالنمش. كان مع لورنا وايوان مربية متوسطة العمر وقد جلست فوق مقعد وامامها رمال الشاطئ. تركت الاولاد يلعبون امامها ولم تشاركهم لعبهم، كذلك لم تكلم ساندني او تحيها.

لعبت ساندني مع الاولاد بالطابة وصنعت لهم من الرمال اشكالاً مختلفة وحفرت بمساعدتهم القنوات الرملية وغطست رجلها في المياه الباردة. انتهى الصباح على هذا الحال. ولما حان وقت الغداء أخذت ساندني ديرميد عائدة به الى دانكريغان بعد ان وعدت الولدين برؤيتهما مجدداً. وصلت

ساندي الى المنزل فوجدت ابنة خالها قد اغتتمت فرصة ذهابها مع ديرميد فذهبت برفقة جوني الى كيركتون لزيارة الحلاق وتصفيف شعرها وسوف لن تعود قبل الثالثة بعد الظهر.

تغذت ساندني وديرميد وصعدت واياه من اجل قيلولته. بعد ان اطمأنت الى نومه دخلت غرفتها لتكتب لوالديها رسالة تخبرهما انها وصلت سالمة وتعلمهما اخبار ديرميد ومرثا. بعد ان انتهت من رسالتها وضعتها في مظروف وكتبت عليه العنوان ثم وضعته في جيب بنطلونها لتضعها في البريد في طريقها الى الشاطئ بعد الظهر.

وقفت ساندني تمتع نظرها بالقلعة العظيمة، من نافذتها. حجارتها الرمادية تلمع في ضوء الشمس. خلفها تنساب المياه تتلألاً عند مصب النهر بهدوء. تذكرت حلم ليلة أمس. تساءلت هل يوجد سجن في قبو الحصن؟ نظرت الى ساعتها تستطلع الوقت. سيبقى ديرميد نائماً نصف ساعة اخرى على الأقل. هذا الوقت يكفيها لتذهب الى الحصن وتلقي نظرة فاحصة عن كئيب. ربما تتعرف الى اماكن التنقيب التي بدأ يستكشفها كائن في حفرياته التنقيبية.

خلال دقائق كانت تمشي الى الحصن عبر عمر ضيق بين صفي حجارة تغطيها الزهور الملونة تطير فوقها جماعة من النحل تمتص رحيق الازهار. رائحة الزهور ذكية والهواء دافئ هادئ وصوت خرير المياه ينساب الى الشاطئ البعيد، كل ذلك اجتمع ليعطي جواً آخر من عالم قديم. كانت ساندني تمضي وحدها كأنها تدخل الى عالم الماضي.

تعاظم هذا الشعور لديها لما وجدت الممر انتهى فجأة وظهر امامها منحدر مغطى بالعشب الأخضر انتهى في فجوة ماثرة حول الحصن ثم بدأ يرتفع الى هضبة صغيرة بني فوقها الحصن. الفجوة هي الخندق المائي الذي يلف الحصن قديماً. ركضت ساندني الى اسفل الفجوة ثم صعدت الى الجهة الثانية، الى الحصن. فوقها مباشرة حجارة البرج الرمادية ارتفعت عامودية منبسطة، وفوقها سطح الحصن ذو الفتحات التي تطلق منها النار وقت القتال. حجارتها خشنة وصلبة تتحدى السماء الزرقاء فوقها.

مشت ساندني الى الامام. دارت خلف الحصن فوجدت باباً مزدوجاً في الحائط الشرقي. يوصل هذا الباب الى طريق جانبية تؤدي الى جسر

خشبي يرتفع فوق الفجوة، خندق الماء، ثم تنعطف الى غابة صغيرة تؤدي الى الطريق العام.

كان احد البابين المزوجين متفجراً قليلاً. اقتربت ساندي ومدت رأسها مستطلعة. انتابها شعور بأنها دخلت القرون الوسطى للحظة، ثم اختفت. وجدت نفسها داخل ساحة مربعة مليئة بالسيارات القديمة. كان هناك سيارة رولز رويس زرقاء، لماعة، يعود موديلها لعام ١٩١٠. قربها سيارة سبور بنتلي خضراء موديلها عام ١٩٣٠ مقاعدها جلدية سوداء ويلفها شريط خارجي اسود. وهناك أيضاً سيارة اوستن سبعة صغيرة جداً ولكنها عريضة قليلاً. عرفت ساندي ان هذه السيارات تخص كروفورد. أجالت بعد ذلك نظرها في الغرفة فوجدت موقداً حجرياً كبيراً في وسط الحائط. وبعد مراجعة معلوماتها التاريخية قررت ساندي أن هذه الغرفة كانت مطبخاً في حصن من حصون العصور الوسطى.

يوجد في زاوية الغرفة المربعة سلماً دائرياً مبنياً في الحائط. تسلقت السلم اللولبية الحجرية بتأن. لاحظت كيف كانت مجورة في منتصفها من كثرة ما مشى عليها بقوة جنود اشداء.

وصلت بها السلم الى غرفة كبيرة فارغة. سقف الغرفة عارضات خشبية مائلة. كانت الشمس تدخل الغرفة من فتحات صغيرة هي نوافذ بدون زجاج. مشت ساندي ببطء وكانت تتحقق من موقع اقدامها خوفاً من أن تكون الأرض الخشبية مهترئة. اقتربت من النافذة ونظرت الى أسفل حيث مياه النهر تلمع عند المصب. انقشع الضباب ظهراً وتراءت لها تلال انكثرتا من مسافات بعيدة.

أعادت تفحصها في داخل الغرفة. لا بد أنها القاعة الكبرى في الحصن. هنا تجتمع العائلة للطعام. تحيّل طاولة كبيرة عليها أباريق خزفية أو معدنية وقربها مناسف الطعام المدورة مليئة باللحوم. النساء يرتدين الثياب الفضفاضة الطويلة. الرجال يلقون رؤوسهم بما يشبه الخمار. يلبسون ستراتهم الجلدية الطويلة والضيقة، بدون أكمام مع سراويل ضيقة. أمكنها ان تتخيل كلاب الصيد منبطحة، ممددة تحت الطاولة تنتظر العظام.

رجعت الى السلم، أكملت صعودها الى الطابق التالي. وجدت نفسها في العراء على السطح. سقف الحصن قد اختفى منذ امد بعيد وما بقي

سوى غرفتين. عرفت ذلك من المدفأتين الموجودتين في الحائط الشمالي. نظرت الى ساعتها من جديد. وجدت ان عليها العودة الى المنزل. نزلت الى الطابق السفلي بتأن. لم تلاحظ وجود قبو أو سجن في الحصن. لا بد ان تعود الى هنا مرة ثانية لتكمل جولاتها في الحصن وتكشف بقية اجزائه.

لفت حول السيارات الثلاث واقتربت لتفتح الباب الخارجي. تذكرت أنها تركته مفتوحاً خلفها. هل من المعقول ان تكون قد اغلقته بدون ان تشعر؟ لم تعد تذكر. جربت فتح الباب. لم يفتح لأنه قد اقفل بمفتاح. يا لدهشتها. أحدهم اقفله حين كانت تتفرج على الحصن في الطوابق العليا. يجب عليها أن تتصرف بسرعة والا ستبقى سجيناً في الحصن بقية يومها أو ربما حتى ليلاً أيضاً صعدت السلم بسرعة الى الطابق الاول. قطعت الحائط الشمالي ومدت رأسها من فتحة النافذة. هناك احد يمشي مبتعداً عن الحصن وقد خرج لتوه من الفجوة. عليها ان تصرخ لتسترعي انتباهه. مدت جسمها فوق الحجارة وجعلت من يديها يوقاً امام فمها وصرخت بأعلى ما يمكنها.

«يا هذا... أنت، عد الى هنا! لقد أغلقت علي الباب!». تسمر الرجل لما سمع النداء. لأول وهلة ظن أن ما سمع وهماً. عاود مشيته مبتعداً. أعادت ساندي الصراخ وأردفت بصغير شديد. التفت الشخص خلفه بعد ان توقف عن متابعة سيره وعاد هذه المرة أدراجه الى الحصن ثم نزل الخندق وصعد الى الجهة الثانية.

ولما اقترب من الحصن عرفت ساندي ان يخلصها هو فارس دانكريغان ليماندا كالدويل. اقترب تحت النافذة ووضع يديه على ردفه ورفع رأسه الى اعلى لينظر اليها. كانت هي تطل من النافذة فوقه. صعدت لما رآته. مرت لحظة ظنت نفسها تعيش حلم ليلة الأمس.

«ماذا تفعلين هنا؟». سأها بسخرية.

كانت الشمس ترخي اشعتها على وجهه الأسمر وتحدد صلابة أنفه وفمه وحاجبيه وفكه. يلبس زياً رمادياً من الصوف الجيد مع قميص أبيض وربطة عنق. تذكرت انه كان في اجتماع مع اعضاء المجلس البلدي.

«امتنع نظري فقط!». قالت بطريقة محبة تحاول ان تخفف من ذنبها.

فرحت لما لاحظته يتسهم من طريقة جوابها كأنها تسخر من سؤاله . اخفى ضحكته بسرعة ولكنها عرفت انه يتمتع بروح نكتة ولكنه يخفي ذلك عن الجميع . ثم اكملت بصوت متوسل : «أرجوك، افتح لي الباب لأخرج» . حلق فيها كأنه يفكر قبل أن يجيبها الى طلبها .

«علي ان ابقىك سجينتي» احتجت وبن على وجهها الخوف ولكنه اكمل : «سأطعمك، واجلب لك الحلويات واللحوم، والسماك الطازج . سأحمل لك احواض الفاكهة المتنوعة وأباريق الشراب المعتق عن الطاولة في داخل الحصن . سأجلبها في ظلمة الليل حتى لا يراني احد ولا يراك احد . حتى لا يعرف احد ان عندي ساحة جميلة في الحصن سجيئة . سنجلس نقسم الطعام والشراب في ضوء الشموع وبعد ذلك . . .» توقف فجأة ونظر الى مجموعة مفاتيحه التي اخرجها من جيب سرواله ثم نظر الى أعلى مرة أخرى وقال : «سأخرجك» قال ذلك ببرود وبدون أي اكتراث .

مشت ساندي الى ناحية الباب بعد ان سحرها حلمه الذي شرحه لها . كيف لاوهي جميلة الحصن السجيئة . عاشت لحظات مسحورة . نزلت السلم اللولبي وكانت تنتظر الفتيات بالاثواب الفضفاضة ينحنين تحت قدميها . صدمتها الحقيقة لما وصلت الى أسفل السلم ووقع نظرها الى السيارات القديمة . فتح ليemand الباب . كان ينتظرها متوتر الوجه بدون أي ابتسامة . التقت عينها الفرعتان بعيني الخاليتين من أي تعبير . تحيرت كيف تغير وبهذه السرعة . قال :

«قدومك الى الحصن وحدك وصعودك السلم المهترئة جنون» ثم اكمل «الارضية الخشبية فوق غير سليمة . ولولم اسمع نداءك لبقيت في داخل الحصن الليل كله» .

«لم أعرف انك ستعود لتغلق الباب ! كان الباب مفتوحاً عندما دخلت . ظننت انه يبقى مفتوحاً دائماً» . ثم فكرت في نفسها ، لا عجب ان تجده مرتاً غامضاً ولا تفهمه . منذ لحظة كان يحبك اجمل الاحلام والان هو بارد كجلمود صخر .

«في الغالب تركت جوني الباب مفتوحاً حين حضر ليحلب بعض المعدات لاصلاح الجرار» .

نحن نستعمل الطابق الارضي كمخزن للالبيات وقطع الغيار

والموتورات . انا اقل عليها لأن للسيارات بعض القيمة الاثرية على ما اعتقد» .

«هذه السيارات تخص كروفورد! هل ستعطيها لابنه ديرميد؟» .

نظر اليها نظرة ريب وتشكك وقال :

«هل حضرت الى الحصن لرؤيتها؟» .

«كلا . لم اكن اعلم انها موجودة في داخل الحصن . اردت زيارة الحصن والتحقق من وجود سجن في القبو هناك . لكنني لم اعرف طريقي الى الطابق السفلي» .

«الطريق اليه من هناك في الزاوية من باب يفتح من الارض . هل تحبين رؤيته الآن؟» .

«ليس الآن ، شكراً . لا وقت لدي . ربما يكون ديرميد قد استفاق من نومه الآن وهو يسأل عني» .

خرجت من باب الحصن مارة من امامه . خرجت الى شمس آب الدافئة ونورها الواضح . تبعها . أقفل الباب خلفه ثم نزل الى الخندق وصعدا الى الجهة الاخرى باتجاه المنزل .

«ما سر اهتمامك بسجن الحصن؟» .

«حلمت البارحة انني سجيئة في الحصن» اجابته ثم اكملت «لكنني شديدة الاهتمام بالحصن كله كأثر تاريخي . لقد اخبرتني نان هذا الصباح ان والدك بدأ كتابة تاريخ حصن دانكريفان قبل موته» .

«هل اهتمامك ينصب على الناحية التاريخية للحصن؟» .

«نعم . انني احمل شهادة بكالوريوس في علم التاريخ . تخرجت لتوي من جامعة دولشستر» .

تخصصت فيما يعرف بعصور ما قبل التاريخ . اي علم الآثار . وقد ساهمت فعلياً في حفريات تنقيبية عن الآثار في مناطق عديدة من جنوب انكلترا» .

كانا يمشیان الهوينا في اتجاه المدخل الرئيسي للقصر . النحل يطير حولهما يمتص رحيق الزهور ويؤكد ان الدفء ملأ المكان . دفء لذيذ يشعر معه الانسان بالاسترخاء .

«لا احد يراك ويتبين رابطة الدم بينك وبين ابنة خالك مرتاً؟» رمى

ليماند هذه الملاحظة. رمقته ساندي بنظرة جانبية مستغربة ملاحظته وقالت:

«كلا لا أظن أحداً يلاحظ صلة الدم بيننا. فأنا أشبه والدتي وهي تشبه والدتها».

والد مرتا هو شقيق والدتي ولكن جمال مرتا هو فريد في عائلتنا. «لم أقصد الشكل الخارجي فأنا لا أهتم للشكل الخارجي. أعني التصرفات والاهتمامات والطباع».

«صحيح. كذلك أنت وشقيقك كروفورد يختلفان كثيراً في طباعكما وتصرفاتكما، هذا ما سمعته أثناء وجودي هنا، انتما توأمان وشكلكما مطابق لبعضكما. إذن ليس من المستغرب أن يختلف أبناء العمومة في الطباع والتصرفات».

«وماذا سمعت أثناء وجودك القصير هنا؟» تساءل بشك. فهمت ساندي أنها بدون قصد قد دأست على طرفه. شعرت كأنها لامست جرحاً عميقاً لديه. وكأنما قد وافقا مسبقاً على التوقف عن السير... توقفاً يواجه أحدهما الآخر. كانا قد وصلا إلى الممرين ضفتي الحجارة. أصبحا كأنهما في مرفأ من الزهور العطرة، معزولان عن العالم كله.

«سمعت أن كروفورد يختلف عنك كلياً». أجابته بسرعة كأنها ترفض أن ترهبها نظراته القاسية من عينيه السوداوين.

«هل هذا رأي ابنة خالك؟» قال بسخرية وتهكم «أظن أنه كان يتنازل لها دائماً ويلبي لها جميع طلباتها. كانت تفعل ما تشاء بدون أن يردعها. هذه طباعة فهو يداهن ويمالق الجنس اللطيف بدون استثناء».

«وهل انت غير ذلك؟» «أفضل أن أكون البادية في أي دعوة لأي علاقة مع الجنس اللطيف».

«اعلم أن مرتا طائشة قليلاً ومستهترة نوعاً ما ولكنني واثقة من أنها أحبت أخاك وابنه بصدق».

كانت تشرح له بحماس زائد بعد أن تذكرت مهماتها التي من أجلها استدعيت للعمل في دانكريغان.

رفع حاجبيه السوداوين وتشنجت عضلات وجهه وظهر بريق في عينيه رأت ساندي لمسه قبل أن يبدي رأيه في ما قالت ساندي.

«هل تظنين أن الحب موجود؟ بالرغم من شهادتك العلمية وقراءاتك التاريخية. هل تؤمنين بوجود هذه العاطفة؟».

أما هي فتجمدت قسماتها وبسرعة قالت: «نعم أنا أؤمن بعاطفة الحب. إن دراستي للتاريخ ساعدتني على إيماني بالحب».

ثم سألتها: «أنت لا تؤمن به؟». أجابها ببرود:

«في اعتقادي أنها كلمة فارغة من المعاني تستعملها النساء للتغطية والتمويه عن أطماعهن الشخصية».

«أوه! كم أنت تخيف، كثير الشك، غامض! رمت كلماتها بدون حذر وقد نسيت وظيفتها الجديدة في التأثير عليه وتليينه... أنت تعتقد أن مرتا تحب نفسها فقط عندما تزوجت أخاك وأنها كانت تعمل لمصلحتها الشخصية حين لجأت اليك مع ابنها».

ضم يديه إلى صدره ونظر إليها كأنها طفلة تحتاج الإرشاد وقال: «ليس هذا هو الواقع؟».

«كلا. لم تحضر إلى هنا إلا بناء على رغبة أخيك حيث طلب إليها أن تحضر ديرميد ليعيش في كنف عائلته آل كالدويل».

«لهذا السبب تمدد إقامتها ونرحب نحن بها؟».

لاحظت ساندي أنه يستفزها ليشير غضبها ويخرجها عن طورها لذلك للممت نفسها وبدأت هجوماً معاكساً. سألتها:

«وكيف تريدها أن تنصرف؟ هي هنا تنتظر منك مساعدة لابنها ديرميد. ألا يتوجب عليك أن تساعد ابن أخيك؟ هل تطلب الكثير؟».

«أذن هي تنتظر مبادرتي. هل تعرفين ماذا ترغب؟ من المؤسف أن مرتا لا تواجهني بنفسها أو تفصح عما يحول في عقلها وتستخدمك كمراسلة بيننا. ما هي بالتحديد طلباتها من أجل ديرميد؟».

«أنا... أنا اعتقد أن عليك أن تبحث الأمر معها هي». للممت ساندي نفسها بعد أن وجدت نفسها مرة ثانية في موقف لا تحمد عليه وإكملت: «الم

تبحث مرتا هذا الأمر معك سابقاً». هز رأسه نفيًا وقال:

«كلما حاولت التحدث معها في أمور تتعلق بالمستقبل، تستقبلني بفيض من الدموع وأنا لا وقت لدي لهذه التمثيليات». وهز كتفه كان ذلك لا يعنيه.

تذكرت ساندي يوم طلبت اليها مرثا ان تكتشف لها نقطة ضعفه لأنها لم تنجح هي باكتشافها مع أنها جربت معه جميع اسلحتها الانثوية. كانت تستعمل طريقته المعهودة بأن تمثل دور المرأة الرقيقة التي لا حول لها ولا طول، دور المرأة التي تنتمي الى الجنس الضعيف اللطيف الخ... كلما باءت بالفشل. تعجبت ساندي وتساءلت: كيف تتوصل هي الى حواسه الداخلية والى تحريك عواطفه الانسانية والى ما تحت درع الفارس! هل عنده شعور واحاسيس مثل البشر أم هناك فراغ متحكم في داخله.

وصلت جلبة من الأصوات استرعت انتباههما. ظهر أمامها ديرميد تتبعه مرثا في الساحة أمام مدخل المنزل. كان شعرها الذهبي الأحمر كأنه شعلة ملتهبة أو هالة نور حول رأسها الجميل. وجهها الأبيض المشيع بالحمرة وانفها المروس في وسط وجهها ثم انفراج شفيتها الورديتين المثلثتين المثيرتين. كانت تركض خلف ابنها.

«ها أنت يا ساندي. ديرميد يبحث عنك في كل مكان. عدت من كيركتون ولم أجده». ثم نظرت ناحية ليماندا واكملت: «مرحباً ليماندا. أهلاً. لطيف منك أن تري ابنة عمتي الحصن والمزرعة». كانت مرثا تتصنع اللطف والكياسة وهي تخاطب ليماندا. تحاول اغواءه بشكل فاضح. شعرت ساندي باشمزاز من تصرفات مرثا. تأكدت ساندي ان مرثا بعملها هذا تعطي ليماندا الفرصة ليسخر منها ويرميها بملاحظات الجارحة وينتقد تصرفاتها. نظر ليماندا الى مرثا نظرة مخزية مشمزة. لم تبال مرثا به بل كانت تركض ترنح فستانها الرقيق حول جسدها الملقوف البض. كان فستانها شفافاً من اللون الاخضر والابيض. فاجأ ساندي حين نظر اليها وغمزها بأحدى عينيه وهو يقول لمرثا:

«لكنني لم اكن أري ابنة عمك الحصن، كنت اخلص فتاة الحصن الجميلة من السجن داخل الحصن... استأذنيك لدي بعض الاعمال». ترك ليماندا مرثا وساندي أمام المنزل ودخل. دهشت مرثا وهي تواكبه بنظراتها وفمها منفرج قليلاً. ثم قالت:

«بالحقيقة لم أفهم ماذا قال. اليس هو غريب الاطوار؟ ماذا يعني بقوله يا ساندي؟».

وجدت ساندي نفسها تخفي ضحكة عريضة في داخلها ولم تدر بماذا تجيب مرثا. اسعفها ديرميد حين سأل كعادته:

«من هي فتاة الحصن الجميلة يا ساندي؟ هل اجد انا في الحصن فتاة جميلة مثل عمي ليماندا؟».

«لا أظن ذلك» أجابته وصوتها متهدج «الفتيات الجميلات موجودات فقط في قصص الفرسان: مثل لوجريز أو قصص الفردوس المفقود».

«من هو الفارس؟».

«هو رجل يركب حصاناً ويقوم بالاعمال الحسنة، يخلص الفتيات الجميلات من التتبن او من السجن».

«لكن عمي ليماندا لا يركب الحصان». حاول ديرميد تصحيح معلومات ساندي.

«كان الانسان يركب الحصان في العصور القديمة أما اليوم فالانسان يركب السيارة او الطائرة...».

«حقاً يا ساندي أنت تفسرين أسوأ من ليماندا عن جميلته سجيئة القلعة. من سمع بفارس يركب سيارة او يطير بطائرة؟» قالت مرثا ذلك بعد ان عيل صبرها من كثرة اسئلة ابنها. تركته مع ساندي.

«ألم يكن كروفورد فارساً يوم تعرفت اليه أول مرة؟ سألت ساندي ابنة خالها مرثا.

لكن مرثا نظرت اليها نظرة استغراب وحيرة. ثم سأل ديرميد من جديد:

«اليس جوني فارساً؟ انه فارس يركب الموتوسيكل. لقد نزل مرة بدراجته بسرعة هكذا...». وبدأ ديرميد يركض ويقلد صوت الدراجة باتجاه الطريق العام. صرخت مرثا:

«قف يا ديرميد» ثم نظرت الى ساندي وقالت لها بلهجة أمرة: «اجعليه يخفف ركضه. ربما تصدمه سيارة مسرعة. الحقي به بسرعة».

ركضت ساندي خلفه في محاولة اخيرة. توقف ديرميد قرب اشارة جانبية على مدخل المنزل الخارجي. توقف ينتظر ساندي ووالدته. ولماً وصلا اليه

مشى الجميع الى الشاطئ. هناك التقى ديرميد لورنا وايوان. قامت ساندي لتشارك الاولاد لعبهم الا ان مرنا قالت:

«اتركيهم. لا خوف عليهم. لنجلس انا وانت نتحدث سوية». جلسا قرب مقعد مربية آله لندسي ولكن المربية لم تعرفهما اي انتباه. «هي عجوز شمطاء! اليس كذلك؟» كانت مرنا تتكلم عن المربية مع ساندي «لا تتكلم مع أحد. لورنا وايوان مرحين وينسجمان مع ديرميد. هل شاركتهم اللعب صباحاً يا ساندي؟»

«نعم» أجابتها ساندي ثم قالت: «هل يعيشون هنا؟». «يأتون الى هنا في فصل الصيف فقط. والدهم بيل لندسي جراح يجبر الاعضاء ويقومها. هو يملك هذا المنزل الكبير هناك في الناحية الاخرى للخليج». تعرفت ساندي الى المنزل لأنه يقع وحده على بقعة كبيرة من الارض في الطرف الآخر للخليج. مربع ومتين ومدهون باللون الابيض. تلف المنزل شجيرات خضراء تتجمع مع بعض وتحيط به حديقة كبيرة في نهايتها بعض درجات تصله بالشاطئ. «أكلت مرنا:

«بيل هو نائب رئيس نادي اليخوت هذه السنة وقد تعرفت اليه يوم سهرت برفقة جوني هناك. نشترك كلانا باشياء واحدة: فهو أرمل وأنا أرملة. لقد توفيت زوجته السنة الماضية. توفيت على أثر مرضها بابيضاض الدم أو اللوكيميا».

«اخبرتني نان عنه عندما ذكرت لها لورنا وايوان. عرفت من نان ان عائلة لندسي وعائلة كالدويل لم يكونا اصدقاء. تقول نان هناك خصومة بين العائلتين».

«ماذا تعرف نان عن هذه الخصومة؟» تساءلت مرنا. «ما رأيك بنان؟ اليس عجوزاً رجعية؟ انها تبالي بالاهتمام بجوني وليماند. في يوم سابق قرأت لي طالعي. تنبأت بأنني سأزوج مرة ثانية من رجل يختلف كثيراً عن كروفورد. اتخى ان تصدق تنبؤاتها بشأن الزواج».

«انتهت مرنا من ثروتها. اعترضت ساندي:

«ولكن، لم يمض على وفاة زوجك كروفورد سوى أشهر قليلة. يجب ان لا تسرع».

«أعرف. لكنني لا أرغب في البقاء أرملة بقية حياتي». «قالت مرنا ذلك ونظرها ناحية الاولاد الثلاثة الذين يلعبون في الرمال. ثم غيرت مجرى الحديث وقالت: «اتعجب لماذا يبقي ليماند نان في ادارة منزله؟».

«من الصعب عليه ان يطردها من منزله بعد كل خدماتها السابقة. هي مربيته. لقد خدمت آل كالدويل عشرين عاماً».

«لكن نان كانت تقوم بأعمال أخرى غير تدبير المنزل. لقد سمعت قصصاً عديدة تحاك حول علاقتها بكافن».

«ماذا تعنين بذلك؟».

«ها انت لا تفهمين من جديد». ضحكت مرنا وأكملت «بالحقيقة يا ساندي لا أحد يظنك من الجيل الجديد المفروض ان يعرف كل شيء ولا يدهش اذا قامت علاقة غير شرعية او محرمة بين شخصين. في كل حال كافن كان رجلاً وسيماً وكذلك كانت نان في صباها. وهي تحمل دم آل كالدويل وتفهم طريقة حياتهم. ثم هل تعتقدين انه من الممكن ان تعيش معه في منزل واحد، كل هذه السنين بدون ان يحصل بينهما اي علاقة؟».

«نعم. من الممكن ان لا يحصل بينهما اي علاقة. ان الجاذبية الحسية ليست كل شيء في الحياة. انا أؤمن ان الرجل والمرأة يستطيعان ان يعيشا سوية في منزل واحد او يعملان في مكتب واحد او ورشة عمل واحدة بدون اي ارتباط حسي او عاطفي بينهما».

ورمقتها مرنا بنظرة ساخرة من طرف عينيها ثم قالت: «ماذا تعرفين عن هذه العلاقة؟ ما هي خبرتك؟ انت تختلطين فقط بطلاب علم التاريخ. او اساتذة تهتم بالخفريات والتنقيب في الماضي الدفين. كذلك لم تعيشي في منزل واحد مع رجل مثير».

«لا اظن ان والدي او اخي توم يعملان لها حساباً؟ علفت ساندي وهي تكشر تكشيرة شيطانية».

«انت تعرفين ذلك بالطبع». اكدت مرنا ثم سألتها: «الم تقابلي بعد رجلاً شعرت انك تحبين العيش معه وترغبين في زواجه؟».

فكرت ساندي بدريك سلون. هو الآن بعيد ينقب في جزيرة في البحر الابيض المتوسط. انه زميلها في الدراسة.

«نعم التقيت احدهم».

«اخبريني عنه». امرتها مرثا وقد اكتسى وجهها بريقاً عجباً لأنها ستشارك ابنة عمتها سرها وتكسب بذلك ثقتها.

«ليس عندي ما اقله». ضحكت ساندي ثم تابعت «هو زميل جامعي درست وياه في الجامعة نفسها. تكلمنا كثيراً في علم الآثار. نتحمس اذا اكتشفنا قطعاً فخارية ونحن نقب. كنت أمل ان اذهب وياه هذا الصيف في بعثة تنقيبية في منطقة البحر الابيض المتوسط ولكن طلبي رفض بينا قبل طلبه».

«ما اسوأ ذلك يا حبيتي. لماذا لم تقبل؟».

«كنت في لائحة طويلة ضمن الذين رفض طلبهم. العرض لديهم يفوق الطلب».

«هل تشاقين اليه؟».

نظرت ساندي الى المياه المتلألئة في الخليج واحست حرارة الشمس تلمح وجهها وسمعت جلبة الاولاد يلعبون. تذكرت اسرار الماضي الدفينة تحت ارض دانكريغان قبل ان تتكلم:

«كلا. لا اظن انني اشتقت اليه بعد. ربما مع نهاية الصيف أتأكد من ذلك».

«اوه. هو ليس بالحب الحقيقي اذن».

«متى يكون الحب حقيقياً؟» سألته ساندي وهي تضحك «هل تدق الاجراس وتفرقع المتفرقات؟ ماذا حصل لك لما قابلت كروفورد؟».

«لا أعرف. لم يترك لي كروفورد مجالاً لاكتشف الحب. التقينا في حفلة وقبل نهايتها تقدم يطلب يدي للزواج. كان دائماً متسرعاً يتبع اهواءه. كلما اعجبه شيء كان يصر على اقتنائه».

«وهل كنت انت ذلك الشيء احبه؟».

«هو كذلك! اليس هذا صحيحاً؟ لكن الامر قد انتهى كلياً الآن!».

«ماذا تقصدين، ان الامر قد انتهى؟» سألته ساندي في صوت خافت بعد ان صدمت من حقيقة تغيير عواطف ابنة خالها بهذه السرعة. ثم استفسرتها «الا تشاقين الى كروفورد وتحسين بالفراغ لفقدانه؟».

«كلا. لا اشتاقه بعد اليوم. اظن ان تنبؤات نان ستتحقق. لقد وجدت شخصاً مختلفاً عن كروفورد هنا. ولهذا سابقي. انه متعقل ولا يتهور مثل

كروفورد. كثير التفكير والخيطة، متأن وحذر. علي ان اقنعه ان الزواج هو الصواب لكلينا. اقناعه يحتاج للوقت. ربما سيأخذ ذلك مني فترة الصيف».

كانت مرثا تتكلم ببطء وجدية على غير عادتها. شعرها الاحمر الذهبي تدلّت خصلاته الى الامام وعلى وجهها حين مالت برأسها الى أسفل. التقطت بيدها خشبة صغيرة ورسمت على الرمال حرف «ل». حددت ساندي في الرمال. ولما تبينت بوضوح الحرف سرت قشعريرة في جسمها واجفلت. ان حرف (ل) يعود الى ليماندا. وحسب رأي نان ليماندا يختلف كثيراً عن كروفورد في كل شيء ما عدا الشكل الخارجي. ارادت ساندي ان تستوضح الاسم الكامل للحرف ولكن ابنة خالها كانت مشغولة بالاولاد. لقد استرعى انتباهها صراخ الابتهاج الصادر عن لورنا وايوان. ركض الولدان عبر الرمال باتجاه شخص قادم نحوهما. كان طويلاً وشعره احمر. قدم من المنزل الكبير وتصحبه سيدة طويلة ترتدي ثياباً أنيقة جداً.

«هذا هو بيل لندسي» قالت مرثا مخاطبة ساندي ومعه اخته هيلين هي طبيبة وصلت لتوها من اميركا الجنوبية حيث كانت تعمل مع مؤسسة الأمم المتحدة. اود ان تعرفني الى بيل. اظنك ستحبيه. وانا اود التعرف الى اخته هيلين».

راقبت ساندي الرجل الطويل يرفع لورنا بين يديه ثم يمد بعد ذلك يده الى ايوان. وعلى بعد مسافة قصيرة وقف ديرميد ذليلاً وقد اكتسى وجهه بالخزن. مسكين ديرميد الصغير. في مثل هذه الظروف يفتقد فيها الصغير والده وعجبت وحناؤه. لاحظ بيل لندسي وجود ديرميد. ضحك له وناداه:

«اهلا يا ديرميد. اين الماما؟».

وعلى الفور تآلق وجهه الصغير بالفرح وأشار بمجرفته الخشبية الى ناحية مرثا. وللغور توجه بيل والاولاد الى مجلس مرثا وساندي. بقيت هيلين تتبع الركب ببطء. كان وجه بيل صبوراً مرحاً طبعاً كما انه يمثل بالنمش.

«اهلا يا مرثا. أراك تستفيدين من وجود الشمس ما استطعت».

«الشمس جميلة! أليس كذلك؟» كانت مرثا تتكلم وهي تضحك «أظن ان الشمس جاءتنا من الجنوب مع ابنة عمتي ساندي التي حضرت لتبقى معي في دانكريغان».

تبادلت ساندي التحيات الشكلية مع بيل. اما هيلين فنظرت الى مرثا بدهشة ثم سألتها بترفع:

«دانكريغان؟ قلت انك تعيشين في دانكريغان!».

«نعم. انا مرثا كالدويل، اعيش مع شقيق زوجي ليمان هناك».

«مرثا هي ارملة كروفورد». شرح بيل لاخته بهدوء.

وعلى الفور اكتسى وجه هيلين كآبة. لم تحي مرثا بل نظرت الى شقيقها:

«علينا ان نعود الى المنزل. والدتي تنتظرنا لتري الاولاد».

دارت هيلين على أعقابها ومشت عائدة الى المنزل وتركت خلفها صمتاً غريباً ودهشة. مشت بلباقة فطرية ورأس مرفوع وكثفين مشدودتين. اما بيل فقد ارتبك ولم يعرف كيف يعتذر. قال:

«هيلين تشعر كالسمكة خارج الماء. هي لا ترغب برؤية هذا المكان بعد ان تغير كثيراً بعد مغادرتها اياه منذ خمس سنين. اعذريني. علي الرجوع بالاولاد الى المنزل. سأراك في نادي اليخوت. انتظرك هناك يا مرثا».

«سوف أكون هناك بانتظارك».

مشى بيل الى المنزل مع ولديه. كانا يقفزان حوله مرحاً. نظرت مرثا الى ساندي وعلى وجهها ابتسامة مزيفة. قلبت مرثا شفتيها امتعاضاً وهزت كتفيها النحيلتين اشارة لعدم الاكتراث.

ثم قالت:

«ما هذا الصدا!».

حاولت مرثا ان تجد لتصرفات هيلين مبرراً. شعرت ساندي ان قطرات الدموع تفرقت في عيني مرثا من شدة تأثرها. تابعت مرثا قولها: «لم تحبني! لم اعجبها! ما هو السبب يا ترى؟».

«ربما لان اسمك كالدويل وربما هي تعتبر ان الخصومة بين العائلتين ما زالت قائمة».

«ربما ذلك».

مشت مرثا صامتة في عودتها الى دانكريغان. لقد جرحت كرامتها من تصرفات هيلين لندسي لها. كان صدها واضحاً للعيان ولم يخف على ساندي.

٣- القمر شاهد الأحاديث

بقي الطقس مشمساً لعدة أيام. اعتادت ساندي ان تذهب برفقة ديرميد يومياً الى الشاطئ قبل الظهر ويعدده. ساعدت كذلك ديرميد في بعض دروس أولية في السباحة له ولصديقيه الصغيرين، لورنا وأيوان. أمضت مرتاً كذلك، معظم وقتها مع الأولاد على الشاطئ. لم تشاركهم اللعب كما تفعل ساندي ولكنها كانت تمضي الوقت تثرثر مع الاصحاب الذين تعرفت اليهم. أكثر من مرة، حضر بيل لندسي الى الشاطئ بعد ان ينهي عمله اليومي. كان يشاركها مقعدها حيث تجلس على الشاطئ تستمتع بحرارة الشمس وتكتسب سمرة محببة. لم تحضر هيلين ولا مرة معه، ولم يأت بيل على ذكرها.

كانت ساندي تذهب من وقت لآخر الى كريغان وهي قرية صغيرة تقع على شاطئ النهر خلف المنزل من الناحية الثانية للتللة التي يقع الحصن فوقها. أحياناً تذهب برفقة جوني على دراجته.

قرية كريغان ميناء لصيد الاسماك، القرية صغيرة وهي مركز صغير للملاحة ومنتجع صيفي. رمت معظم أبنيتها لتصبح صالحة للسكن ومعظم بيوتها تقع على جوانب مصب النهر حيث تعكس المياه زرقة السماء وخضرة التلال على ضفتي النهر. كانت الرحلة الى كريغان تسرها.

وقت المد ترى المراكب الشراعية متجمعة عند المصب تحتمي. أشرعتها مختلفة الالوان والاعلام مشرعة تحت أشعة الشمس يداعبها النسيم فتفرق بسلام. وحين الجزر تتضاءل مياه النهر فيصبح كساقية رفيعة تشبه في شكلها الحية الزرقاء. يظهر الطمي على هفتي النهر فيتغير لونه من

الاصفر الذهبي الى البرونزي ثم البني الغامق حسب ما تعكس السماء. التقت ساندي رون كارسون في كريغان. هو أكبر منها بقليل. عيناه زرقاوان وطبيعته ضاحكة مرحة يعمل مهندساً معمارياً وشريكاً لوالده في عمله. غالباً ما يصحب رون ساندي وجوني للزخات البحرية في مصب النهر في مركبه الشراعي. لقد أمضت ساندي أول أحد لها في دانكريغان في هذه القرية.

صحت ساندي يوماً باكراً لتجد ان الاسبوعين قد شارفا على الانتهاء. شعرت بوخز الضمير وهي تتذكر انها للآن لم تتوصل الى أي نتيجة في مهمتها الموكلة اليها. لم تتوصل لمساعدة مرتا في اقناع ليماندي كي يتكفل بتعليم ديرميد... وكذلك لم تعرف أي شيء بعد عن تاريخ دانكريغان. كل ما فعلته انها أمضت عطلة ممتعة كانت تسرح وتمرح على حساب شقيق زوج ابنة خالها. قفزت من فراشها يخالجها شعور بالذنب.

الساعة السادسة صباحاً. ستجد ليماندي يتناول فطوره في المطبخ قبل ان يبدأ يومه بالعمل في املاكه. انه مراوغ كبير ويعرف كيف يتملص من وعوده. انها تلتقيه دائماً وقت الطعام ولكنه لم يحدثها بشأن ديرميد ابداً. كان يتناول طعامه صامتاً ثم يعتذر ليذهب الى مكتبه حيث ينكب على أكراس الورق أمامه، أو يخرج الى مراقبة مشروع جديد ينفذ في املاكه. صمته وتحفظه، ايضاً، لم يسهلا على مرتا مهمتها في اجتذابه والتأثير عليه، كي يقدم لابنتها المساعدات أو... ليست بطلونها الجينز وتذكرت حرف (ل) الذي رسمته مرتا فوق الرمال. عيبت. هل صحيح ان مرتا ترغب في الاستقرار في دانكريغان وتحاول اجتذاب ليماندي؟ هل هو غايتها للتزوج به؟ كانت تلاحظها سوية. كان ليماندي يشمئز من حركات مرتا الوقحة لاجتذابه. هو غريب الاطوار ولا يمكن لاحد أن يقرأ ما يجول تحت القناع الذي يلف به وجهه الجميل. لا أحد يستطيع معرفة ما يرى في عينيه السوداوين. نظراته مبهمة وباردة. دائماً ينقل بصره بينها هي ومرتاً متفحصاً ويستخلص لنفسه ما يشاء عنها.

مشطت ساندي شعرها بالفرشاة. نظرت في المرآة لتطمئن الى شكلها. انها جميلة وخذأها ورديان فمها واسع قليلاً مع امتلاء في شفثيها. أنفها مروس وعيناها رماديتان. قفزت من غرفتها الى الدرج. كانت الساعة

القديمة تشير الى السادسة والنصف صباحاً.
دخلت المطبخ. سرت لأن ليماندا ما زال هناك يجلس لوحده. أمامه
الشاي ويطلع مجلة وهو عابس. نظرت سائدي حولها. لم تر نان. جوني ما
زال يحلب البقرات. ان فارس دانكريغان لها وحدها الآن. دقت ساعة
العمل.

«صباح الخير». سلمت عليه مبتسمة. لم تقرر بعد بماذا تناديه. «انه يوم
آخر جميل».

«صباح الخير».

ثم عاد لمجلته يطالعها وهو يشرب الشاي.

لم تستغرب برودته في استقبالاتها. لقد اعتادت ذلك منه. صبت لنفسها
بعض الطعام. صدمتها الفوضى الكبيرة التي عمت المطبخ هذا الصباح.
لم يكن غطاء الطاولة عليها. كان عليها ان تفتش لتجد لنفسها فنجاناً او
ملعقة. من الواضح ان نان غير موجودة.

«أين نان؟».

«انها مريضة. طلبت اليها ان ترتاح اليوم في فراشها، عليك ان تدبري
طعامك بنفسك اليوم. حان الوقت لك ولابنة خالك ان تكتشفا ان هذا
المنزل ليس فندقاً او مدرسة داخلية».

استغربت سائدي هجومه غير المنتظر. رفضت الوضع. انه متجاهل
عليها. قررت ان تبقى هادئة من أجل اهدافها البعيدة معه.

«أعرف انه ليس نزل ولا فندقاً. أنا أساعد نان قدر المستطاع. هل
أستطيع اليوم أن أقوم بأعمالها في غيابها؟».

نظر اليها بطرف عين. مال كرسيه الى الورا وقال:

«أشك بقدرتك على ذلك!».

«هل تظن أن لا حول لي ولا قوة؟».

تبسم من اجاباتها وأضفت عليه البسمة جاذبية لا تقاوم. اجابها:

«اووه! كلا! أنا لست متأكداً. يصعب علي ان ارى جامعية متخصصة في
علم التاريخ تعرف أيضاً ادارة منزل في حجم منزلنا. حتى نان تجد صعوبة
في الاعمال المنزلية الكثيرة، وهي تقوم بهذا العمل منذ عشرين سنة. لا
أرغب في مس شعورك ولكن جهدك لا يحتمل تحضير الغداء والعشاء لك

جميعاً، تنظيف المنزل والغسيل والترتيب ثم القيام بأعمال المزرعة الموكلة
الى نان...».

كان يكلمها بكبرياء وغطرسة ولا يترك فرصة للسخرية منها ومن مرتا
وجهلها التدبير المنزلي.

«أنت تجهل كلياً ما أستطيع ان افعل. سأقوم بكل اعمال نان اليومية
وأكثر وسأبرهن لك ذلك منذ الآن».

حلق فيها ليماندا بعينه السوداءوين. لا تعابير فيها. نظر الى فنجانها
الفارغ. كتم ضحكة كادت تغلق من بين شفثيه شعرت بها سائدي. هل
هو يضحك منها؟ ماذا ستفعل ان ضحك عليها!

«اذن. لقد صممت على ادارة اعمال المنزل اليوم. أقبل تحديك. برهني
لي انك تستطيعين القيام بذلك».

دهشت من موقفه وتراجعت قليلاً الى الورا ثم قالت:

«لدي شرط واحد. أريد ان تسمح لي رؤية مخطوطات والدك التي كتبها
في تاريخ دانكريغان. اخبرتي نان انها في المكتبة. أريد أن تأذن لي بدخول
المكتبة للاطلاع عليها».

«كان علي ان اعرف انك لن تقومي بالعمل بدون مقابل». قال ساخراً
ثم حدق بها لحظة. لقد فاجأه طلبها. ثم تابع «ما أغرب ما تطلين؟ يمكنك
رؤيتها ولكنني احذرك ان الفوضى نعم المكتبة. والذي لم يسمح لأحد
بدخولها وكذلك لم اهتم انا ابداً بترتيبها بعده».

«هل لديك فكرة. أين أجد المخطوطات؟».

«ربما في جوارير المكتب» قال ذلك ووقف لفوره. كانت ابتسامة ساخرة
تلف وجهه وهو ينظر اليها متعجباً. «اتفقنا أذن: مقابل دخولك المكتبة
وقراءة المخطوطات ستطبخين لنا الغداء والعشاء وتنظفين الصحن والمنزل
وتغسلين وتقومين بأعمال نان في المزرعة».

هزت رأسها موافقة. خرج بدون ان يزيد كلمة اخرى. نظرت حولها في
المطبخ. هالها قدم الادوات النحاسية فيه. لا توجد اي تسهيلات كهربائية
مما تجده في مطبخ والدتها. تحققت بذاتها المهمة الصعبة التي ألقت بنفسها
فيها. لقد وقعت في الفخ الذي نصبه لها ليماندا ولهذا السبب وافق سريعاً
على شرطها. الآن هو يضحك عليها وعلى سذاجتها.

غضبت مما وصلت اليه. صعدت لتستفقد نان، فوجدتها مريضة طريحة الفراش. وجهها شاحب ودوائر سوداء تلف عينيها.

«انه الصداع. يتناوب دوريًا وعليّ ان استريح في الفراش». «لا عليك. لا تهتمي. سأقوم بأعمالك عنك. سأطبخ وأغسل وأفعل كل ما تفعلينه. هل يمكنك مساعدتي وارشادي؟ ماذا ربت من طعام للغداء؟»

أخبرتها نان عن اللحم والخضار للغداء وكذلك للعشاء ثم الشاي في الساعة الخامسة.

طلبت اليها تجميع البيض من قن الدجاج وتعليبه للشحن لليوم التالي. «جميل منك يا صغيرتي ان تساعدني. انا اشكرك وكذلك سيسكرك ليماندا».

فكرت ساندي بكلامها ثم ذهبت الى غرفة مرتا وأخبرتها بكل ما حصل.

«يا ساندي. لقد وقعت في الفخ. لماذا حصل كل ذلك اليوم؟ انني مدعوة بعد الظهر الى نادي الغولف لألعب ايرفنز في نادي كيركون. لماذا تخذليني؟ دعوتك الى دانكريغان لمثل هذه الظروف حيث اخرج ولا ينشغل بالي على ديرميد، لا يتوجب عليك القيام بأعمال نان هنا. يستطيع الشباب تدبير أمورهم لوحدهم في مثل هذه الظروف».

«أظنهم يستطيعون». تمتعت ساندي وهي ما تزال تتألم من معاملة ليماندا لها. لا بد وأنه يراها فتاة ساذجة بسيطة من السهل خداعها واستغلالها. ثم اكملت حديثها مع مرتا «لا أستطيع أن أراجع الآن. ربما يرسلني ليماندا الى بلدي ان لم افعل ما وعدت به. في أي حال، العمل ليس كثيراً. هوليوم واحد فقط. ثم ان مساعدتي في تأمين العمل يعطيني شعوراً بأنني لست عالة عليه».

«هل ما زلت تشعرين بتأنيب الضمير؟».

«نعم. ماذا لو تطبخين انت الطعام؟ ربما بعملك هذا تلفتين نظره اليك».

«أنا! أنا أطبخ في هذا المطبخ العتيق؟ أوه. كلا يا ساندي. أنت وعدت بذلك وأنت تنفذين. أفضل أن ألفت نظره اليّ بطريقة ثانية...»

ضحكت مرتا ضحكة مبطنة ثم اكملت «عليك مباشرة الطبخ الآن والا ف لن ينضج الطعام في الثانية عشرة والنصف، موعد الغداء».

استغرق الطبخ الوقت كله. بالاضافة الى أعمالها المتراكمة كان على ساندي ان ترد على الهاتف بين الحين والآخر مما زاد من أعبائها. تمتت لو بقي لديها المزيد من الوقت لترتيب الطاولة بطريقة أجمل ولترتيب نفسها كذلك. قدمت الطعام في وقته لكن اللحم ما زال قاسياً ويحتاج للمزيد من الاستواء كذلك حلو المرملاد ما زال طرياً في الوسط ويلزمه المزيد من الطهو. أكل الرجال بدون تذمر. شكرها جوني وقال انه تمتع بطعام شهبي وتمنى عليها أن تطبخ لهم مرة ثانية خلال اقامتها في دانكريغان.

شعر ديرميد بأنه مهمل من الجميع. لم ينتبه اليه احد. ساندي مشغولة عنه بأعمالها. بدأ يضرب بملعقته صحنه يريد المزيد من الحلوى. نظرت اليه مرتا وطلبت منه ان يصمت. كانت هي مشغولة عنه بالحديث مع ليماندا لعلها تجذبه اليها او تؤثر فيه. لم يرد ديرميد على طلبها بل بدأ يصرخ بصوت عال. نظر اليه ليماندا وأمره ان يصمت والا يطرده من المطبخ. ذهل ديرميد من الاوامر التي اصدرها اليه عمه. سكت قليلاً وحذق فيه ولكن ليماندا لم يعره انتباهه. امسك ديرميد بملعقته ورمى بها عمه وصرخ: «عمي المرعب. عمي المخيف. أنا اكرهك. لا اعتقد انك فارس. انك عمي المرعب».

وقعت الملعقة ارضاً ولم تصب ليماندا. ساد الصمت. حذق الجميع عندئذ بديرميد. لقد نجح في لفت الانتظار اليه. حذق بهم ثم انفجر باكياً ومولولاً.

«خذي الى غرفته يا مرتا. لا تجلبيه الى الطعام معنا الا اذا كنت واثقة من حسن تصرفه». كان صوت ليماندا آمراً. مشت مرتا بدون معارضة لأن ساندي اشارت اليها ان تطيعه.

حملت مرتا ابنها وهو يلبط ويرفض ويصرخ صراخاً حاداً. صرخ ليماندا:

«اهدا والآ ضربتك؟».

سكت ديرميد للحال وكف عن العراك. حملته مرتا واستأذنت وهي تقول:

«ليماند. انه لا يقصد سوءاً. هو طفل صغير بريء».
«أعرف ذلك. لكن عليه ان يتعلم كيف يتصرف منذ الآن. هو من
آل كالدويل صعب المراس. عليك ان تكوني شديدة في تربيته والآن سيصبح
مجرماً».

حاولت مرثا ان تعترض ولكن ليماند نظر اليها نظرة صارمة. تنهدت
وخرجت مع ابنها من الغرفة وبعد دقائق خرج ايضاً ليماند وجوني من
المطبخ. نظفت ساندي الصحون الوسخة ورتبت المطبخ. صعدت الى
غرفة ابنة خالها لتواسيها. كانت واثقة انها تبكي لوحدها. مرت بطريقها
الى غرفة ديرميد وتأكدت انه نائم وقت القيلولة. دخلت غرفة مرثا فوجدتها
تجلس على حافة السرير ويدها منديلها تمسح به دموعها من على خديها.
رأتها مرثا فسارعت الى القول:

«يا ساندي. ماذا أفعل؟ الاسبوع الماضي كان ديرميد حسن التصرف
بعد حضورك ظننت انه انتهى من نوبات الغضب التي تنتابه. انظري كيف
تصرف اليوم. لقد بدأ ليماند يبيدي اهتمامه بي ويتحدث الي ولم يعد يهملني
كالسابق. اشعر انني عدت الى البداية معه».

«لا اوافقك الرأي. اظن اننا نعرف الآن سبب نوبات الغضب عند
ديرميد».

«كيف نعرف! لماذا يفعل ذلك؟ ما هي الاسباب؟» سألتها مرثا بعد ان
مسحت دموعها ونظفت أنفها بمنديلها.

«انه يكره ان يسترعي انتباهك احد وخصوصاً ليماند. انا كنت مشغولة
عنه ولم استطع ان اعيره انتباهي لانشغالي باعمال المنزل».

«اظنك على صواب. ولكن متى اتكلم مع ليماند؟ انا لا اراه الا وقت
الطعام. لم اصل بعد الى اي نتيجة معه بشأن ديرميد. هل استطعت
انت؟».

«لا. تكلمت معه فقط يوم وصلت وقد اخبرتك ما دار بيننا. مرثا، ربما
انت تضعين وقتك ببقائك هنا».

«ارجوك لا تبدأي حديثك مرة ثانية في هذا الموضوع. يجب عليه ان
يساعد ديرميد. الولد يحتاج لأب». ولم تستطع اكمال جملتها لأنها غصت
بدموعها من جديد.

«بكأوك لن يفيد. كفي عن البكاء قبل ان تشوهي جمالك وتظهر آثار
البكاء على عينيك ... عليك ان تخرجي بعد الظهر. متى ستذهبن؟»
طابت ساندي خاطرهما. لاقت كلمات ساندي اذنًا صاغية عند مرثا
فتوقفت عن البكاء وتبسمت من وسط الدموع. كان الشمس ظهرت بعد
المطر.

«هل تقصدين انك ستترعين ديرميد اثناء غيابي؟»
«بالتأكيد. لا اظن اعتنائي به يثقل كاهلي بالاضافة الى اعمالي
الآخري».

«شكراً يا عزيزتي. اقدر لك جميلك». نزلت مرثا عن فراشها وقالت:
«ماذا سأفعل؟ سيمر آل ايرفتر علي بعد ربع ساعة. ليس لدي الوقت الكافي
لاجهز نفسي للخروج».

خرجت مرثا الى نادي الغولف. اكملت ساندي ترتيب المنزل وتنشيف
الصحون ثم كنست الارض ومسحتها قبل ان يستيق ديرميد من نومه. ولما
ناداها ديرميد حملته من غرفته ونزلت به الى المطبخ. كان جوني قد وصل
لنوه. قال لها يطلب وذاها بابتسامة عريضة:

«علينا ان نجتمع البيض الآن. سأساعدك في هذه المهمة».

اخذت ساندي ديرميد معها وساعدها في تجميع البيض. كسر عدداً منها
من كثرة تشنجه وعصبيته. ما زال تحت تأثير مشكلته مع ليماند. فقد ثقت
بنفسه. ظن انه سيعاقب على اي خطأ يدرعه. طمأنته ساندي وأعطته
بعضاً من لعبه يتسلى بها بينما اكملت هي توضيب البيض في علبة من أجل
شحنه في اليوم التالي. رن جرس الهاتف. كانت مرثا تضحك وهي تخبرها
انها مدعوة لتمضية السهرة خارج المنزل وتطلب منها الاعتناء بديرميد
والاهتمام به لينام. اكدت لها ساندي انها ستفعل ما طلبته منها ثم اقفلت
الساعة وعادت الى المطبخ. قررت اطعام ديرميد قبل موعد ليماند
وصعدت به الى غرفته لينام. ولما حضر ليماند لم يكن العشاء جاهزاً.
حاولت ساندي ان تشرح له الاسباب الا انه رمقها بنظرة ساخرة كعادته،
لكنه لم يتكلم بل دخل الى مكتبه.

واخيراً جهز العشاء. حضر الجميع الى المطبخ واكلوا. كانت ساندي
متعبة جداً.

ولما انتهت من حمام ديرميد وقص القصص عليه. نزلت الى المطبخ لتكمل غسيل الصحون، وجدت جوني قد سبقها الى الجلي.
«شكراً يا جوني انت ملاك من السماء».
«ليس كذلك. لقد شرح ليماندا تفاصيل غسيل الصحون بعد ان اوكل الي هذه المهمة. هل تراقبيني الى كيريغان بعد ان ننتهي».
«لا استطيع. مرتاً خارج المنزل. عليّ البقاء مع ديرميد لأن نان مريضة ولا تستطيع رعايته، وأريد ان ادخل المكتبة واقتش فيها عن مخطوطات تاريخ دانكريغان. لقد سمح لي ليماندا بذلك. هل تدلني اين المكتبة؟».
رافقها جوني عبر الممر وفتح باباً قرب السلم الداخلي. دخلا غرفة سقفها مرتفع، تكتنفها الظلمة. أدار جوني زراً كهربائياً ليزيل العتمة. هناك ثلاث نوافذ عريضة ستائرهما داكنة. أزاحت ساندي الستائر وفتحت النوافذ ليدخل النور. للحال عمّ الغبار الاسود المكان، ومزقت الستارة من اعلاها وتدلّت من طرفها وبقيت معلقة ببعض الدوائر الخشبية التي تشدها الى السقف.

«فوضى كبيرة. اليس كذلك؟».

نظرت ساندي فاذا بها ترى صورتها معكوسة في مرآة كبيرة اطارها مطلي بالذهب معلقة فوق المدفأة الانيقة. الى جانبي المدفأة رفوف مليئة بالكتب. لا بد ان تكون هذه الغرفة قاعة الاستقبال الرسمية قبل ان يحولها كافن الى مكتبة يعود تاريخها الى القرن الثامن عشر.

«كيف يمكنهم ان يملوا المكتبة بهذا الشكل؟» تعجبت ساندي وهي تتفحص الغرفة والكتب المبعثرة حولها هنا وهناك وفي كل مكان.
«الرجل المعجوز كنت أناديه عم كافن: كان معتزلاً عن الجميع. يغلق على نفسه ويبقى هنا أياماً كاملة. كان يكتب تاريخ دانكريغان».

مشّت ساندي الى المكتب حيث اكاداس الاوراق. الى يمين المكتب صينية فضية عليها زجاجة شراب يحتوي على سائل اصفر. الى شمال المكتب في اطار من الفضة صورة زواج رجل في الاربعين. شعره أسود وعيناه سوداوان. يلبس بدلة ضابط حارس في الجيش الاسكوتلندي. قربة صبية في فستان زفاف ابيض تصغره بعشرين سنة تقريباً. شعرها أسود ولكن عينيها ملونتان وعلى قمها ابتسامة مرحة عابثة.

«ماذا حل به؟» لماذا اعتزل الناس؟ الآن زوجته ماتت؟».

«نعم. غرقت في مصب النهر».

«غرقت وهي تسبح؟».

«كلا. لم ار هذه الصورة قبل الآن. كانت جميلة جداً. اليس كذلك؟ كانت تصغره بعشرين سنة. أظن أن هناك بعض الحقائق للاشاعات التي راجت حولها».

«ما هذه الاشاعات؟ قل لي يا جوني».
«نوسلت اليه ساندي وهي تشعر ان بعض الغموض بدأ يتكشف لها».

«يوم غرقت كانت في نزهة بحرية برفقة رجل على متن يخته. تقول الاشاعة انها كانت في سبيل الهروب معه الى ايرلندا فقلبت الرياح العاتية البخت في مصب النهر، عند حدوث المد، ولم ينجوا، ووجدت الجثتان على الشاطئ».

«اليس لديك شيء أفضل من أن تضجر ساندي بثرثرة محلية؟».

كان صوت ليماندا وراءهما. التفتا بسرعة نحوه. الشعور بالذنب يلغهما. كان ليماندا واقفاً في وسط الغرفة، عابساً. لم يكن راضياً عن سماعه المحادثة التي تناولت والديه.

«رغبت ساندي ان ترى المكتبة» قال جوني وقد أحس بالحجل من اخض قدميه حتى قمة رأسه.

«نان ترغب في رؤيتك. انه الاجتماع الشهري للمنظمة الريفية اليوم. هي مريضة وترغب اليك ان تحمل اعتذارها عن الغياب بسبب المرض، مع وقائع الجلسة الاخيرة. قال ليماندا يخاطب جوني بصوت هادئ ومتزن».

«حاضر. اعتذر منك يا ساندي فالواجب يدعوني».
ضحك جوني ضحكة صفراوية بينما هو حزين لانه تركها وحدها تحت رحمة ليماندا القاسي.

«لم تكن تثرثر. كنت أرغب في معرفة أسباب اعتزال والدك عن العالم وترك كل شيء هنا ي تلف ويفسد تدريجياً. كان جوني يخبرني بالقصة الحزينة».

«لكنها لا تهتمك بشيء».

«لا وافقك الرأي. كل ما حصل في الماضي يهمني لانه يساعدني على فهم الحاضر».

«آه. نسيت. أنت متخصصة في علم التاريخ. تهتمين دائماً بالاسباب والنتائج».

قال ساخرأ. نظر حوله في الغرفة وقال «لم أكن أعرف ان المكتبة على هذه الحالة المتردية. ربما علي ان احرقها جميعها: الاثاث، الكتب، الستائر...».

«أوه. لا. انه انتهاك للحرمت. الكتب والاثاث يمكن تنظيفها. بعضها له قيمة أثرية كبيرة».

«وهل تظنين ذلك؟ كيف يمكنني ان أعرف قيمتها؟».

«انا متأكدة مما أقول. لا بد ان احداً في متحف غلاسكو يستطيع تقييمها لك. اما المفروشات فأي شخص يعرف في الاثاث يساعدك في تقدير القيمة الاثرية للكراسي والمكتبة».

«ولكن. علينا أولاً تنظيفها قبل ان نسال اي شخص».

«انا استطيع ان انظف الكتب وامسح الغبار عنها وأرتبها».

«انت مجتهدة ومستعدة دائماً لتقديم الخدمات. لم اشكرك لمساعدتك اليوم! كان عمك افضل مما توقعت».

كان حديثه صادقاً. قالت ساندي في نفسها، لا تدعي مديحة بخدعك. ربما قد نصب لك فخاً آخر للمزيد من العمل المرهق. اجابته:

«شكراً. ربما اقتنعت الآن ان المرأة تستطيع ان تقوم بتدبير المنزل الذي هو حقلها منذ بدء الخليقة بالاضافة الى تسلحها بالعلم والمعرفة. فالشهادات الجامعية لا تعيقها في اداء اعمالها المنزلية».

كانت تكلمه برصانة مجابهة الند للند. نظرت الى وجهه، هناك دلائل انفعالات بادية عليه ولكن عينيه لا تفصحان عن شيء.

«انت لا تحبينني، اليس كذلك؟».

لم يكن لدى ساندي أي جواب حاضر. تذكرت مهمتها الدبلوماسية من أجل ديرميد. قالت مدافعة عن نفسها:

«انا لا اعرفك حق المعرفة».

«كم أنت حذقة. انت لا تحبينني فلا تخدعيني، انا في نظرك لا احتمل،

صلب، وكثير الشكوك».

«من قال لك ذلك؟ أنا... اعتقد انك غير راض عني وعن مرثا».

«ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟».

«طريقتك في معاملتي. دائماً تسخر من تصرفاتي وافكاري كل ذلك يشير الى انك تحمل لي روح العداء وعدم الرضى».

«هذا غير صحيح... قولي لي ماذا كنت تنتظرين قبل مجيئك الى هنا؟ مغامرة عاطفية مع شاب اسكتلندي؟».

«أوه!» تساءلت ساندي في نفسها. لماذا تجدد نفسها تتحارب واياه بالسيوف كلما اجتمعت به، بينها العكس هو طلبها للتفاهم معه على مهمتها بشأن ديرميد. «لا تكن فقط. انا لم انتظر شيئاً من هذا القبيل. أنا لست فتاة

لا ترى في الرجل سوى...».

«سوى رجولته، اليست هذه هي الكلمة الشائعة. اكمل عنها جملتها. اخبريني اذن، كيف ترين الرجال من عليانك؟ هل تربنهم كما تراهم مرثا، مصدراً لتأمين المأكول والملبس، موطناً للحماية والتأمين ضد المصائب، كبش الغداء للتكفير عن اخطائك؟».

«كلا. كلا. انهم اناس. أتكلم مع أحدهم في اشياء نشترك في اهتمامنا بها. نتباحث ونتبادل الرأي حولها، نتفاهم... اتمنى ان يراني كما أراه انساناً سوياً».

كانت ساندي تشرح رأيها بالرجل وقد افزعها ما قاله عن مرثا. احست ساندي انه يتفحصها بعينه السوداوين من الخصر قدمها لجدور شعرها. ثم قال:

«ربما يراك بعض الرجال هكذا» ثمتم وقد ظهر في عينيه وميض من الاعجاب بها. هذه المرة لمحت بريقاً في عينيه لم تره من قبل.

«لكنك لا تراني هكذا؟» سألته وقد شعرت بارتعاش من جراء نظراته تلك.

«ليس دائماً. انا شخصياً اتمتع بما تقدمه النساء من مميزات ولكنني لا اهتم بنظرية تكافؤ الجنسين».

«هذا واضح».

اجابته ساندي وقد شعرت بأنها هزمت في جولتها معه ابتسم وهو عيشي

نحو المدفأة بطريقه الى خارج المكتبة.

«هل تستطيع ان اتكلم معك بشأن ديرميد؟» سألته وهي تتبعه.

استدار بسرعة واجبرها على التوقف لأنها كانت ستصطدم به.

«هل هذا الموضوع من المصالح المشتركة؟ ماذا عن ديرميد؟»

سألها بتهكم. بدأت ساندي ترتعش قليلاً بعد ان وجدت نفسها قريبة جداً منه، خطت خطوة الى الوراء.

«أرجوك لا تسيء الظن به لسوء تصرفه على الغداء اليوم. لقد اختلط عليه الأمر. انه لا يجد فرقاً بينك وبين والده مما جعله مشوشاً».

«لماذا؟»

«انك تشبه والده كثيراً بالشكل ولكنك لا تتصرف معه على هذا الاساس- أي كوالده».

طوى ذراعيه على صدره. ضاقت عيناه السوداوان وهو يفكر:

«معقول». وافقها ثم ابتسم بعث. رأت الشبه بينه وبين صورة والدته على المكتب.

«انه ليس الشخص الوحيد الذي يخلط بيني وبين كروفورد للشبه الكبير بيننا. كنا نلعب هذه اللعبة مراراً». اختفت البسمة وحل محلها العبوس.

هل طلبت منك مرثا ان تتكلمي معي بشأنه... حتى لا اضربه؟»

«كلا. انها مهمومة بشأن نوبات غضبه. هي تعرف انه يحتاج لأب...» توقفت ساندي عن متابعة كلامها بعد ان رمقها بنظرة شك. ثم

اردفت «هي ترغب ان يترى هنا ويذهب الى المدرسة التي درست فيها انت وكروفورد. زوجها لم يترك لها اي مال. لها راتب تقاعدي ورثته عن والديها

ولكنه لا يكفي لسد مصاريف تعليمه».

حدق فيها كأنه يفكر ويزن ما قالت في عقله. ثم سألها ببرود:

«هل انت متأكدة ان هذا كل ما ترغب فيه مرثا؟»

«نعم». تذكرت حوارها مع ابنة خالها وحرف (ل) وفكرة زواجها مرة ثانية واكملت: «لا... أنا لست واثقة».

«ظننت ذلك. هل لديك فكرة... أين هي هذا المساء؟»

«قالت انها مدعوة للسهرة. ذهبت لتلعب الغولف مع آل ايرفينز في كيركتون بعد الظهر».

«فهمت الآن لماذا طلبت اليك الحضور الى هنا لمساعدتها في رعاية ديرميد. لا أنا ولا جوني ترضى ان نرعى الصغير في غيبتها وكذلك نان مشغولة معظم الاوقات. بدأت أتحقق من براعة ابنة خالك في التخطيط البعيد المدى. لديها خطط محكمة. اعتقد ان والدي كان يرحب بها. سأتأكد لتكملي بحثك عن المخطوطات التاريخية وسأذهب أنا الى حساباتي لاوازنها. اتحنى لك التوفيق في حملة التفتيش. اعلميني رأيك فيها اذا وجدت».

عادت ساندي الى المكتب لتفتش في جواريره. هناك ثلاثة جوارير محشوة بالملفات والاوراق المغلفة وقد كتب فوقها بخط مرتب. صحيح ان كان كافن اعتزل الناس واكثر من الشراب في آخر ايامه، إلا انه ظل انساناً خلاقاً مبدعاً وبقي نظامياً لنهاية ايامه. كل ملف عليه عنوان وارقام متسلسلة. اول ملف اخرجته كان يحتوي على المقدمة للتاريخ.

زاد حماس ساندي واخذت اول ملف وصعدت به الى غرفتها. بدأت تقرأ عن جذور المستوطنين الاول في دانكريغان...

في اليوم التالي عادت نان الى عملها المعتاد في تدبير المنزل. بقيت مرثا نائمة صباحاً بعد ان تأخرت في سهرتها. ذهبت ساندي مع ديرميد الى الشاطئ قبل الظهر وعادت وقت الغداء. صعدت ساندي مع ديرميد بعد الغداء الى غرفتها لتقرأ المزيد مما كتبه كافن. وضعت ديرميد في سريره لينام بعد الطعام. دخلت غرفتها ولكنها لم تنعم بالهدوء لان مرثا دخلت تشرح لها ما تمتعت به في سهرتها في نادي الغولف.

«احزري من حضر الى النادي عند وصولي؟»

«لا أعرف».

«بيل لندسي». تمحّدت مرثا على سرير ساندي وجهها الى أسفل ورجليها تتأرجحان في الفضاء وهي تقضم تفاحة.

«لاختصر لك القصة، دعاني بيل للعشاء وبعد ذلك اخذني الى بروكفيلد حيث منزله قرب الشاطئ». كم هو فخم وافضل بكثير من هذا المنزل.

«هل رافقته اخته هيلين للعشاء؟»

«لا. التقيتها في المنزل وتصرفت أحسن تصرف أمام والدتها».

ضحكت مرتا ثم اكملت «هي ودودة للغاية، لكنها تكلمت كلاماً غريباً يا ساندي. قالت اني سعيدة الحظ لانني التقيت الاخوة كالدويل كل على حدة. ما رأيك بقولها؟»

«ربما كانت تعرفهم في أول عهدها بالشباب وقد اختلط عليها الشبه بينها مثل الكثيرين. كنت اتحدث البارحة مع ليماندا. اخبرته ان ديرميد يختلط عليه الامر لأنه يشبه والده كروفورد وتصرفاته تختلف عنه. اخبرني انها كانا يلعبان هذه اللعبة... كان كل منهما يدعي انه الآخر ويتمكنان من خداع الناس. أليس هذا ما يفعله التوائم في اكثر الاحيان؟»

«أظن ذلك. لقد سألتني بعد ذلك اذا ما كنت متأكدة انني تزوجت كروفورد وليس ليماندا... شعرت كأنها سدّدت لي ضربة خفيفة. ما زلت أشعر أنها لا تحبني لانني من آل كالدويل... ماذا تقرأين؟»

«مخطوطات تاريخ دانكريغان التي كتبها كافن كالدويل. انه ممتع. هل تعرفين ان الحصن يعود تاريخه الى العصور المظلمة (٤٧٦-١٠٠٠ ب م، اي العصور الوسطى. هي آخر معاقل المقاومة ضد الانكلو- ساكسون في القرن السادس؟ ربما بناها الملك أوريان الذي حكم مملكة تمتد من جنوب كاليزل الى دمبريز ثم غاللوي حتى سترانرار».

تمتت مرتا وهي تتسائل:

«متى؟»

«في أيام. الملك ارثر الاسطوري. بعض هذه القصص عن الملك اوريان تشير الى مقاومته الانكلو ساكسون وربما قد أضيفت الى الخرافات».

«صحيح. هل تقصدين الملك ارثر في التمثيلية الغنائية كاميلوت؟»

«نعم. هو الملك نفسه. كان كافن يحاول أن يبرهن صدق نظريته بالتنقيب عن أدلة. وقد وجد بعض المصنوعات التي تثبت نظريته ومنها دبوس للزينة من النقش السلتي وكذلك كتلة معدنية مصبوبة معدة لصنع أشكال مختلفة. لكنني لا أعرف أين وضعها».

«أسالي نان. ربما تعرف». أضافت «انه بربري متوحش. لا أحد يستطيع العيش معه. هل سمعت ما حل بزوجه؟»

«نعم. اخبرني جوني الليلة الماضية القصة الحزينة. هل تظنين أنها حقيقية وأنها كانت في سبيلها الى الهرب مع رجل آخر؟»

«بالطبع حقيقية. لقد اخبرني زوجي كروفورد بها».

«هل قال لك سبب هروبها؟»

«لا. لكنني حزرت. لا بد أنها أحبت رجلاً آخر... هذا يحصل دائماً يا غبية».

«اعتقد أنه يحصل. ولكنها مسؤولة عما حل بالعائلة من بعدها. كانت تكلم نفسها اكثر ما تكلم مرتا».

«ماذا تقصدين؟» استدارت مرتا في الفراش واستوت على ظهرها. تمطت كأنها قطعة مدللة.

«الاسباب والنتائج. هذا هو علم التاريخ. لو لم تغرق فيليدا. وهي تبحر مع رجل آخر في نزهة، لما اعتزل زوجها الناس وأكثر من الشراب وبالتالي أصبح عصبي المزاج واختلف مع ولديه وترك بالتالي هذا المنزل يفسد ويبل تدريجياً».

«هذا فظيع! لو افكر مثلك بالاسباب والنتائج لما أقدمت على أي عمل. هل تعتقدين أن زوجته مسؤولة عن خلاف العجوز مع كروفورد وطرده من المنزل؟»

«لا أعرف بالضبط. من الممكن أن طباعه لم تكن لتسوء وكذلك من الممكن ان ليماندا وكروفورد كانا قد عاشا بطريقة مختلفة لو بقيا في رعاية والدتها».

«ربما». تمتت مرتا.

«هل تعرفين أسباب الخلاف؟»

«بشكل مبهم غامض. كان كروفورد دائماً يدافع عن نفسه ويردّد أنه مظلوم. يقول ان والده اكتشف انه اساء التصرف في سنين سابقة قبل ان يترك ليماندا المنزل ليعمل في مزارع الغير. غضب والده منه وطرده. اشعر ان ليماندا له علاقة بالمسألة... القصة قديمة وقد حصلت منذ اثنتي عشر سنة تقريباً. الاب توفي وكذلك كروفورد... بقي من آل كالدويل الآن فقط ليماندا وديرميد هل اخبرك ليماندا الليلة الماضية عن مستقبل ديرميد؟»

«ليس قبل ان افتح له الموضوع بنفسي. اخبرته ما ترغبين لابنك من فرص جيدة من اجل تعليمه. كذلك اخبرته انك لا تملكين مالا لتعليمه

بنفسك».

«جيد. اكمل يا ساندي. ماذا كان جوابه؟ هل قال انه مستعد لتحمل مصاريف تعليم ديرميد؟».

«لا. سألني فقط اذا كنت واثقة بأنك لا ترغين في شيء آخر، واجبت انني لست واثقة».

ثم نظرت اليها عاتبة «لو تبخثن معه مستقبل ديرميد صراحة. انا لن ابقى هنا طويلاً بعد».

لقد دعاني للبقاء اسبوعين فقط وينتهي هذا الموعد الاربعة المقبل. «عليك ان تبقي اكثر. يمكنك ذلك. لن يمنع على ما اعتقد».

«أنا أمانع». قالت ساندي بحدة. تكذرت مرثا ونفرت الدموع من عينيها. شعرت ساندي بوخز في الضمير وبأنها غير مخلصه.

«ربما، لو يعرف ما ترغين لتوصل الى قرار بهذا الشأن. مرثا، هل تعليم ابنك هو كل ما ترغين به من مساعدة؟».

أصرت ساندي ان تعرف. كانت مرثا شاردة بأفكارها بعيداً كأنها تداعب سراً جيلاً في داخلها.

«أرجوك لا تسألني. لن افصح عن رغيتي الآن. اعتقد ان تكلمت عن رغيتي لأي انسان فسوف لا أنال ما أرغب وانا لا أريد أن أفسد. هذا شعوري الأكيد».

«نعم». تنهدت ساندي وقالت: «اعرف هذا الشعور... ولكن؟».

«تحملني معي أرجوك. أشكرك لبحثك موضوع ديرميد مع ليماندا. اعتقد انك مصيبة بأن سلوك فيليدا قد أثر كثيراً على التوأم. ربما من أجل ذلك لا يتق التوأم بالنساء. تدل شهرتهما أنها يهربان من الفتيات بعد ان يقعن في حبهما».

«هل هذا صحيح؟».

«نعم صحيح. أنا اعرف أن كروفورد كان كذلك قبل أن يلتقيني».

قامت مرثا ومشت نحو الباب وهي تهز ردفها.

«كيف تمكنت من منعه من تركك؟».

«انت تحملين شهادة جامعية ولكنك تجهلين أمور الحياة الاساسية».

سوف لا أخبرك كيف ولكنني نجحت في مهمتي أليس كذلك؟».

«لكنك لم تنجحي مع أخيه!» علقّت ساندي هازئة.

«لا لم افلح بعد ولكن...» ضحكت مرثا ضحكتها التي تشبه الشمس المشرقة.

«سمعت صوت ديرميد. لقد استفاق. لنذهب الى الشاطئ». الحمد لله ما زال الطقس جيداً».

بعد غياب الشمس وقد بدا القمر يتوسط السماء، جلست ساندي في سيارة رون كارسون السبور في طريقها الى كريغان. كان جوني برفقتها.

أوقف رون سيارته بين الطريق العام والشاطئ. صعدوا الى الفندق للقاء بعض الرفاق. لقد رضيت نان ان ترعى ديرميد في غيبتها. قاعة الفندق مليئة وكذلك غرفة الشراب. جماعات يجلسون حول طاولات يحسسون الشراب ويتحدثون.

وسع مكان للقادمين وسط مجموعة من الشباب والشابات يجلسون حول طاولة. تعرفت ساندي اليهم وطلبوا لها بعض الشراب.

همس جوني في اذنها: «انظري من يجلس في الزاوية».

كانت مرثا تجلس ضمن مجموعة ومن بينهم بيل لنديسي.

«قالت لي انها قادمة لتحضر السباق».

«اعتقد ان رايح السباق هو بيل لنديسي». نظر جوني الى رون مخاطباً «من هذه المرأة التي تجلس قرب نائب مدير النادي؟».

«انها هيلين شقيقته. هي...». توقف رون عن الكلام بعد ان وكزه جوني في كتفه اشارة له ليصمت. ثم قدم له المزيد من الشراب. وبعد قليل أكمل رون كلامه في موضوع آخر قائلاً:

«هل عرفت الساقية لهذه الليلة؟ انها صديقتك الشقراء. ربما ستبقى للرقص بعد دوام عملها».

«اتمنى ذلك». قال جوني وهو مأخوذ بالنظر الى الساقية الشقراء.

قرر الجميع الانتقال الى قاعة القرية للرقص. خاطب رون جوني قائلاً: «لقد انتهيت مع الساقية الشقراء هذه الليلة. قريبك ليماندا قد سبقك اليها».

نظرت ساندني الى البار. فرأت ليماندا يميل الى الشقراء يكلمها. كان يرتدي سترته الرمادية، التي ارتداها يوم استقبال ساندني في دمفريز، فوق بنطلون أسود وكنتزة سوداء قبتها عالية. بدا هندامه الرسمي المميز في غير مكانه المناسب وسط المصطافين في ثيابهم المختلفة الألوان. فكرت ساندني بالفارس الأسود في السابق.

«اعرف سبب حضوره». قال جوني وهو ينظر الى الزاوية التي جلست اليها مرتاً مع بيل لندسي «تستغرب ما يمكن ان تفعله المنافسة؟». كانت تجلس مرتاً تتحدث بروح معنوية عالية بعض القصص. وضعها وسط المجموعة مخزي بنظر ليماندا ويحط من قدره وقدر عائلته. الى الجهة الاخرى جلست هيلين وعيناها الزرقاوان على ليماندا وقد ابيض وجهها كأنها ترى شيئاً أمامها. أشاحت ساندني بنظرها عن هيلين ولكنها اكتشفت ان ليماندا يراقبها هي. حيته باستحياء. خجلت من نفسها لأن حمرة الخجل قد تسربت الى وجهها بدون ارادتها. هز ليماندا رأسه بحبيها. وقف رون ومجموعة الشباب عندئذ لمغادرة الفندق في طريقهم الى قاعة الرقص الكبرى في القرية.

وصلت المجموعة الى القاعة. كانت اصوات الموسيقى الصاخبة تسمع من الخارج. دخلوا ونزلوا فوراً الى حلبة الرقص على أنغام الروك. الرقص وسيلة تعبير وهروب. يساعد على الاسترخاء والتخلص من التشنجات العضلية. ينسي الهموم ويساعد على حل المشاكل... توقفت الموسيقى. جلست ساندني على كرسي قرب الحائط للاستراحة. جلس رون قريباً بينها وقف جوني أمامها. مال رون الى الامام يخاطب جوني وهو يبتسم مكشراً:

«لا تنظر الى المدخل. حضرت الشقراء برفقة ليماندا».
«لا يضيّع وقته سدى». سخر رون وهو ينظر الى جوني «يمكنك ان تطلب منه ان يعرفك اليها».

«كيف؟» سأل جوني باهتمام بالغ.
«هناك رقصة الفالس التي ستعزف عاجلاً أم آجلاً. يحق لك ان تقطع على اي اثنين وتراقص مرافقته بدلاً منه».
كان رون صادقاً. توقفت موسيقى الروك واستبدلت الفرقة بأخرى

تعزف موسيقى اسكوتلندية ريفية. كانت أول رقصة اعلنت الفرقة عنها رقصة الفالس. كل من ليس له رفيقة لتراتقصه، يمكنه ان يقطع على اي راقصين ويطلب التبادل مع الراقص».
«ابشريا عزيزي. ها هي فرصتك الذهبية». أعلن رون وهو يضحك «تعال يا ساندني راقصيني».

كان رون يرقص وهو يعلق على كل ما يراه حوله في حلبة الرقص. «لقد قطع جوني على ليماندا رقصته. انه يراقص الآن الساقية الشقراء. اظنك سمعت عن السلوك الغريب الذي مارسه ليماندا وشقيقه التوأم كروفورد حين كانا يحضران الى قاعة الرقص في السنين السابقة».
«كلا. لم اسمع. قل لي يا رون. اخبرني». قالت وهي تلهث من كثرة اللف والدوران.

«شقيقي جين متزوجة الآن وعندها ولدان، قالت لي انها ذهبت مرة للرقص بصحبة ليماندا وعادت الى المنزل بصحبة كروفورد. لكنها لم تعرف انها تبادلاها الا بعد اسبوع حين اخبرتها الفتاة التي ذهبت عائدة بصحبة ليماندا القصة. كانا يفعلان مثل هذه الحيل دائماً».
«كان لا بد لها ان يقعا في مشكلة يوماً ما».
«اي مشكلة يمكن ان يقعا فيها؟».

«اتهم احدهما بأنه عبث مع احدى الفتيات بينما شقيقه التوأم هو الذي قام بذلك... اتفهمين ما أعني. عرف والدهما بالامر...».
«عن اذنك. هل لي ان اقطع عليك رقصتك يا رون؟» كان صوت ليماندا باردا بدون ابتسامة.

لقد قطع الحديث عنها كذلك. لقد حصل اليوم ما حصل في المكتبة حين كان جوني يجبرها عن فيليدا. دائماً ليماندا يقطع عليها حبل المعرفة. كانت ساندني تفكر في نفسها.

«من حفر حفرة لأخيه وقع فيها». أجابه رون وهو يضحك من الألم.
«سأراك فيها بعد يا ساندني». دار يفتش عن فتيات من معارفه كن يجلسن يسترحن ليكمل ثروته معهن.

كانت ساندني ترقص بسهولة مع رون. أما الآن فالامر يختلف. لقد وضع ليماندا يده على خصرها وأمسك بيدها في حزم شديد. كانت يده

باردة قاسية. ارتعشت بين يديه وتشنجت. شعرت أنها لا تعرف الرقص.

«تبدين غير مرتاحة».

«أشعر بدفء هنا من كثرة الازدحام».

«لترك الى الخارج تنمشي ونشم هواء لطيفاً». قادها الى مقعدها حيث أخذت سترتها الصوفية. ترددت ساندي قبل أن تخرج. كانت تفتش عن جوني الذي كان مشغولاً كلياً بالشقراء التي ما يزال يراقصها. وقع نظرها بعد ذلك على رون وقد انشغل بفتاة حسنة في الثامنة عشرة من عمرها. شعرها أسود مجعد. نظرت ساندي الى ليمان الذي كان يراقبها كأنه يقرأ افكارها على الطريقة العجورية.

«كل منهما يتمتع برفيقته الجديدة اكثر بكثير من رفقتك انت».

«هذا غير لائق بك ان تقوله لي».

اعترضت. ثم قالت في نفسها ماذا يعرف عني وعن جاذبيتي وسط معارفي ورفاقي: تذكرت أن رفقتها ممتعة في قاعة المحاضرات او المناقشات او الرحلات التعليمية. أما في الحفلات الراقصة فكان رفاقها يفضلون عليها الفتيات الاكثر جمالاً والعاثات المستهترات.

«عنت بقولي مديحاً، ليس الآ. هما يهتمان بالشكل الخارجي وليس في المضمون الداخلي للفتاة. اهتمامها ينصب فيما تكشف عنه المرأة وليس بما في داخلها. أنت رصينة وبريئة ولن تروقي لها الليلة. كل ما يبغيانه الليلة هو المتعة».

«ما أدراك ان ذلك بغيتها؟».

هز كتفيه وضحك ضحكة قصيرة جذابة وقال:

«اعرف ذلك من خبرتي السابقة منذ اثنتي عشرة سنة عندما كنت أحضر الى قاعة الرقص لهذه الاسباب... تعالي تنمشي معاً في ضوء القمر ونبحث في المصالح المشتركة».

شعرت انه يسخر منها. نظرت اليه. أعاد اليها النظر بدون أي تعبير.

قالت:

«ما هي المصالح المشتركة بيننا؟» خالجه شعور غريب هو الشعور نفسه الذي تحسه كلما التقت شعور ينهبها الى خطر المشي معه في ضوء

القمر.

«مستقبل ديميد، سعادة مرتاً... لدي بعض الاسئلة ربما تعرفين الاجابة عنها. أريد نصيحتك أيضاً في مسألة أخرى. هل تتمشين؟».

٤ - درعه يلين بالعناق

حملت ساندي شالها الصوفي ولفت به كتفيها وذهبت برفقة ليماندا. ليست هي الرسول بينه وبين مرتا وهذه حجته ليحظى بها لنفسه فترة وجيزة.

خرجوا من القاعة المزدهجة بالناس والضجيج الى الجو اللطيف في هدأة الليل تحت ضوء القمر تمشياً سوياً في عمر مرصوف بحجارة الغرانيت، تغطيها اشجار الحور العملاقة. كانت المنازل القرية المطلية باللون الأبيض تظهر كالاشباح وسط العتمة. النسمات تداعب مياه المصب فتتراقص جذلة، وتظهر التلال المرتفعة خلف المصب تعكس ظلالها المستديرة على صفحة السماء المتارة بضوء القمر.

ليلة مميزة للعشاق، كانت ساندي تفكر حالة... اعادها الى صوابها الرجل الذي يمشي قريبا حين سألها ضاحكاً: «منذ متى تعرف مرتا بيل لندسي؟»

اذن، جوني على صواب، ان المنافسة بينه وبين بيل هي التي حملته الى الخروج من عزلته.

لهذا السبب حضر ليماندا الليلة الى كريغان يتتبع اخبار مرتا. ربما سمع اشاعة مفادها ان مرتا تخرج مع بيل وحضر بنفسه يتقصى الحقيقة.

«لا اعرف». تعرفت اليه قبل حضوري الى دانكريغان. كانت برفقة جوني في نادي اليخوت حيث تعرفت به. ثم ان ديرميد يلعب يومياً مع اولاد بيل على الشاطئ. واحياناً يحضر هو ايضاً الى الشاطئ بعد ان يفرغ من عمله. احسست غضبه يتصاعد من تأثير حديثها، فانبرت تدافع عن

ابنة خالها تقول:

«لا تهتم للأمر. مرتا تحب ان تحيط نفسها بالعديد من الاصدقاء. انها اجتماعية وتحب الاختلاط مع الناس...»

«هذا ما لاحظته. اليوم، حين رايتها تذهب برفقة بيل، في سيارته، فوجئت لأنها وجدت اصدقاء من تلك الضاحية».

«امن اجل الخصومة؟»

«اي خصومة؟»

«اخبرتني نان بأن هناك خصومة عاشت بين عائلتي كالدويل ولندسي، في غابر الأزمان. العائلتان تحاصمتا على الأرض او القطعان... اليوم انتهت الخصومة بالتأكيد».

«كان عليّ ان افطن الى انك ستكشفين الستار عن القصص البربرية عند جدودي». قال ذلك وهو يضحك. ثم اكمل «الآن نحن لا نتخاصم من اجل الأرض او القطعان. لقد تمنا».

«كيف ذلك؟»

«مثلاً. هيلين لندسي احبت شقيقي كروفورد منذ سنين قليلة. العلاقة لم ترق لوالديها فقتلنها في المهد».

«اوه. وهل رغبت الزواج به؟» سألت ساندي تستوضح الأمر لأنه يجلو بعض الغموض لديها. ثم قالت: «لهذا السبب تصرفت هيلين بغرابة عندما قدم بيل اخته الى مرتا. لقد ظنت هيلين ان مرتا نجحت حيث فشلت هي. ثم يوم رأتك هيلين في النادي كانت تنظر اليك كأنها ترى شيئاً».

«صحيح! لم لاحظ. كانت دائماً تجد صعوبة في التفريق بين اخي وبينني».

«مثل فتيات كثيرات غيرها، اذا كان ما سمعته الليلة صحيحاً». كانت تضحك منه لتضايقه.

«لقد سمعت قصة جين شقيقة رون كارسون بالتأكيد. حرام جين، لم ولن تغفر لنا ابداً».

«الحقيقة. انه عمل غير مهذب. كيف تقومان بحيل وخدع مثل تلك؟»

«كنا نقصد المزاج وليس الضرر». قال بهدوء «وعندما كبيرنا كانت لهذه اللعبة نتائج وخيمة دوت كقعر الطبول».

«لقد نلت انت اللوم على شيء بغيض فعله شقيقك التوام كروفورد».

توقف ليماندا عن المشي واستدار ليوأجبهها. أمسك بذراعها وهزها. نظر الى وجهها مستطلعاً كان ضوء القمر يغمر وجهها وقد بدا الخوف على عيائها. سألتها:

«من اخبرك؟»

«لا احد. رون سمع اشاعة تقول ان احدهما كان ملاماً عن شيء اقترفه الآخر. اعتقد انك انت البريء». قالت ساندي وهي ترتعش.

«وكيف توصلت الى هذا الاستنتاج؟» قال وقد حاول ان يكبح جماح غضبه. اختفى صوته لكن يده ما زالت ممسكة بذراعها في عنف مما يدل على شدة غضبه وانفعاله.

«جمعت اثنين مع اثنين». حاولت ان تفلت من قبضته ولكنها لم تفلح.

انت... انت تؤلني. اترك ذراعي ارجوك؟».

تركها في الحال. كانت تسمع انفاسه تخرج بصعوبة من بين اسنانه وهو يتهدد بغضب.

«هل يمكنك ان تخبريني ماذا تعنين؟».

«ان ما سمعته عن كروفورد من زوجته مرثا، ثم ما سمعته من نان، وكذلك ما عرفته عنك خلال اقامتي في منزلك...».

ادار رأسه بسرعة نحوها. ذهل. تسمر في مكانه. ثم قال:

«عليّ ان اكون حذراً في ما اعمل او اقول خلال اقامتك في دانكريغان».

لم افطن الى ان متخصصة في علم التاريخ يمكنها ان تكون مخيرة. اياك ان تظني ان باستطاعتك فتح خزانة واخراج الهياكل العظمية للعائلة من داخلها. اياك ان تجمعني اثنين مع اثنين مرة ثانية. المنطقة مليئة بالثرارين. عادة يكون جمع اثنين مع اثنين خمسة بدلاً من اربعة هنا. بهذه العمليات الحسابية تمكن الناس من ازعاج والدي وسرقة راحة باله. ارجو ان لا تقومي باقتناص المعلومات عني او عن شقيقي كروفورد من خلال اقامتك هنا. هل فهمت جيداً ما اقصد؟».

وقفت ساندي مسمرة. شعرت بالغضب يملكها. لقد عرضت نفسها

لاستقاداته اللاذعة بدون ان تدري. نسيت كبرياء آل كالدويل التي لا تهزم. اجابته:

«نعم فهمت ما تقصد. انني لم ابحت عن معلومات ابداً. ليس بيدي ان افعل اي شيء حيال كلام الناس. الجميع يتكلمون عنك وعن عائلتك امامي».

«هذا صحيح. يمكنك ان تكفي عن استنتاجاتك مما تسمعين. ربما معرفة الماضي ضرورية لفهم الحاضر، لكنني افضل ان اغلق الباب على الماضي. كان علي ان اغلق هذا الباب لانقذ دانكريغان. عملت جهدي لتصبح مزرعة منتجة مزدهرة. هي ان يأتي الجيل الجديد من آل كالدويل يرث اكثر من منزل متهدم وحصن متداع وحقول تغطيها الاعشاب اليابسة وحفنة من الديون. الحزن والبكاء على الماضي لا يفيد والعزلة عن الناس، كما فعل والدي، لم تسفر عن اي نتيجة».

«انا لا اوافقك الرأي. لقد اعطى والدك تاريخاً. ربما تفضل ان تحرق المخطوطات مع الكتب والستائر والاثاث... او ليماندا، اعرف ما تكابد اليوم، ولكن، الا تعتقد انك تأثرت بالماضي فهو الذي جعلك بهذا التفكير، رجل كادح، تعمل لبناء المستقبل بشكل افضل. لقد تعلمت من اخطاء والدك».

كان يستمع اليها باهتمام. كلماتها تلاقي اذناً صاغية. وبعد فترة صمت قصيرة قال:

«انك تهتمين بما احاول القيام به».

«بالطبع. بالطبع اهتم».

ران صمت آخر. ثم سمعته يضحك.

«انها المرة الأولى في حياتي، اصطحب معي فتاة تنمشي تحت ضوء القمر وامضي الوقت اناقشها».

«كان لا لزوم للنقاش لو لم تغضب انت من استنتاجي الصحيح انك اخذت كل اللوم عن اخطاء ارتكبتها اخوك. انا لا استغرب انك كنت دائماً تستر عن اخطائه وتفخر من عملك هذا. لقد ازعجك كثيراً ان احداً اكتشف الحقيقة التي كنت وما زلت تخفيها عن الجميع».

«كفى، كفى ارجوك».

كان مرهقا يحاول ان يمسك بذراعها ليجعلها تقف: «الا ترين انك تحطمين اعتقاداً راسخاً لدي بأنني كنت على صواب في تغطيتي لاختفاء اخي وسكوتي حين كان اللوم يقع علي».

«هذا فظيع. كيف يلومونك انت على افعال سيئة...؟».

«ماذا تقصدين؟». كان يحاول ان يسخر «كلانا من طينة واحدة. لم يكن احد يفرق بيننا».

«اعمالكم تساعد على التفريق بينكما. خبرتك في الحياة تختلف عن خبرته. في السنوات الماضية، هناك امثلة عديدة تساعد على التفريق بينكما. انكما تختلفان كلياً في طباعكما».

ثمّت ساندي ان تسأله ما الذي فعله كروفورد واتهم هو به ولكنها خافت ان يتهمها من جديد باقتناص المعلومات عنه. سكّنت.

«ربما». كان ما يزال ممسكاً بذراعها. تعجبت. انه واقف لا يتحرك. انه يمين النظر اليها كأنه يراها للمرة الأولى. اكمل «ولا واحد منا كان يمكن ان يضيع فرصة سائحة مثل هذه...».

تحرك من جموده. انقض كالتسر على فريسته. عانقها بشدة وكاد يخنقها. حرك ذراعه ليجيئ بها. تراجعت الى الوراء وركضت باتجاه النور والموسيقى.

كانت تركض ويدها على فمها. كاد قلبها ان ينفطر. لماذا تركض؟ انه شعور فطري، الهرب، قبل فوات الأوان، من شخص يستطيع ان ينتصر على قلبها وجسمها معاً. شخص اصبح مهماً لديها اكثر من اي انسان في الوجود، اهم اليها من نفسها. وقفت خارج قاعة الرقص تهديء من روعها. رتبت شعرها بيديها. كانت لا تريد جوني اوروون ان يلحظا عليها اي تغيير في شكلها الخارجي، لهما عيتان ثاقبتان وبالتالي يؤولان اشياء عنها. نظرت حولها لترى اذا كان ليماندا قد لحق بها. ثم دخلت قاعة الرقص وكلها امل في ان تجد جوني اوروون لتحتمي بها حين يعود ليماندا الى القاعة. كان من الصعب العثور عليها وسط ازدحام الراقصين. التفت ساندي فتاة كانت ضمن المجموعة التي تعرفت اليها. مشّت اليها وسألتها بأعلى صوتها:

«اين جوني ورون؟».

«خرجنا. ذهبنا الى كيركتون منذ ربيع ساعة. فتشنا عنك ولم نجدك. اعتقد جوني انك ذهبت بصحبة ليماندا، قريبه. طلب الي ان اعلمك انه غادر».

«شكراً جزيلاً».

مشّت ساندي الى الخارج مرة ثانية، حيث ضوء القمر. اذن، لم يلحق بها ليماندا. لا تراه. احتارت، ماذا تفعل؟ يمكنها العودة الى دانكريغان لوحدها. يمكنها المشي بمحاذاة الطريق العام ثم عبر التلال في الطريق القادومية. انها لا تعرف طريق التلال، رحلة شاعرية في ليلة مقمرة. مشّت لوحدها لنهاية القرية. مرت بطريقها على الفندق. لقد اطفأ انواره ويسوده الظلام والهدوء. مرت بعد ذلك بنادي اليخوت وبقية متاجر القرية. انتهت رحلتها على الطريق العام وعليها ان تمشي عبر التلال.

بدأ القمر رحلته باتجاه الغرب ومن مركز القمر في السماء قررت ان دانكريغان تقع الى الشرق. كان الممر الذي تسير فيه باتجاه الجنوب. ظنت انه ربما ينعطف بعد ذلك شرقاً. مشّت. رائحة البحر تصل الى انفها، والنسيم العليل يداعب شعرها ووجهها، والقمر يعكس اشعته الفضية على عيائها. هدوء كبير في مياه المصب، كأن المياه نائمة، ضاق الممر، اصبح المصب الى يمينها، احست بالاعشاب تلفها. شجيرات شوكية، ربما هي اشجار ورد وشوكها كبير، كانت سترتها الصوفية تعلق بالاشواك. اختفى القمر خلف الشجيرات. لم تعد تدري اين طريقها. خافت. شعرت بقشعريرة تسري في جسمها وجفاف في حلقها. شيء خلفها يخشخش. غصن شجرة التوى ثم انكسر. ما الذي كسره؟ التفتت خلفها. رأت شبحاً يقترب منها. صرخت:

«من هناك؟».

«ساندي؟ الى اين تذهين؟»

كان صوت ليماندا.

اقترب الشبح ومثل بشراً، عرفته للحال. انتابتها رعشة قوية سألتها:

«ما الأمر؟».

«اخفتني! لم اسمعك تقترب».

قالت واستانها تصطك. بقيت ترتجف... مشى اليها وامسك بذراعيها. صرخت:
«لا تلمسني».

لم يأبه لاعتراضها. جذبها اليه بقوة وضمها الى صدره وقال:
«لا رغبة لي بأن اخيفك. كنت في الطريق المؤدي الى المنزل. رأيتك تأخذين الطريق المؤدية الى مصب النهر. اهدأي. لا شيء يخيف هنا...».

الدفء في جسده وقبضته القوية تحتويها وضحكته المكثومة في صوته وهو يهدئ من روعها، كل هذه اجتمعت لتعطيها الطمأنينة، وتدرجياً هذا روعها وسكنت ولم تعد ترتجف.

«سأرافقك الى المنزل في دانكريغان. لقد اخذت طريقاً خطأ. هذه الطريق توصلك الى الرمال. الآن وقت المد والرمال لن ترحمك».

كانت ساندني تتمتع براحة وهو يضمها اليه، تحس دفء جسمه وقوته ولكنها تحركت تحاول الافلات منه. وللغور تركها وقال:

«هل انت احسن؟».

«نعم. شكراً. لا اعرف ما الذي حصل لي؟ عادة لا اخاف!».
«انت لست معتادة على ان تكوني لوحدة في الريف وسط الليل. ثم ربما ضوء القمر جعل خيالك ينجح بعيداً وتخيلائك صورت لك اشياء غريبة».

«صحيح. كيف عرفت؟».

«انك لست الوحيدة التي حصل لها ما حصل لك في ضوء القمر. نان تقول انها غريزة البقاء تنبهك عند اقتراب الخطر اليك. هذا صحيح. الرمال خطيرة هنا وربما ابتلعتك!».

«رمال متحركة!» كادت تصرخ من الخوف. لقد وقف شعر رأسها من الفزع.

«هل تستطيعين العودة معي في الطريق الصحيح؟».

«نعم نعم شكراً. هذه هي المرة الثانية التي تنقذني فيها من الخطر».
«صحيح؟».

«نعم. هل تذكر يوم اقبلت باب الحصن علي؟».
«تذكرت».

مشيا الى القرية سوية. قال ليماوند يحدثها:
«اعتقد ان جوني ورون قد تركا قاعة الرقص حين عدت اليها».

«نعم. ذهبنا الى كيركتون، ولهذا السبب حاولت العودة لوحدي».
«ليس من المستحسن ان تعود لوحدة في طريق لا تعرفينها جيداً. كيف يمكن لفتاة مثلك، تعتمد على نفسها، مقتدرة، تتمتع بالحرية، ان تخاف بهذه السهولة! هل خفت ايضاً من عناقي؟ الهذا ركضت؟» صوته هادئ ومتين.

«لا، كانت تكذب. لم يعجبني تصرفك ولم ارحب بفكرتك التي مفادها ان باستطاعتك عناقي متى ترغب. لماذا فعلت ذلك؟».

«لقد قلت لك انها فرصة سانحة لا تعوض. لقد حان الوقت لتجدي رجلاً يعاملك كامراً وليس كشخص لا جنس معين له، حسب اعتقادك بنفسك، انت ترتدين اليوم ثوباً وهذا يليق بك اكثر من البنطلون».

لقد اغضبها انتقاده، ولكنها فضلت الصمت لان امامها تلة عليها صعودها. كان القمر خلفها ينير لها الطريق. ظلها يمشي امامها.

«ما اجمل شكل القمر، كيف ينال على ضفة النهر...» كان ليماوند يتلو شعراً قد حفظه. تعجبت. قال «لقد نسيت بقية ابياته. انت اقرب مني الى ايام الدراسة. هل قرأت تاجر البندقية؟ هل تذكرين بقية الابيات؟».

«نعم. قرأت التمثيلية في المدرسة واذكر المنظر بين جيسيكيا ولورنزو جيداً عندما تقول جيسيكيا:

«في هذا الليل

اقسم لورنزو الشاب انه يحبها كثيراً

لقد سرق قلبها وروحها بوعد الاخلاص والولاء

وليس بينها ابداً واحد صحيح».

(شكسبير)

انتهت ساندني من تلاوة الشعر وضحك هو تقديراً لها وقال:
«لقد فهمت مرادك. انت تقولين انك لن تتخدعي بالكلمات المعسولة

ولا العناق في ضوء القمر. لا عليك. انت في امان. لن اقسم لك بانني احبك ولكن يجب ان اعانقك مرة ثانية، لتعرفي بنفسك».

تراجعت الى الخلف محاولة الابتعاد عنه. تحركت حصاة صغيرة تحت كعب حذاءها. اختل توازنها. كانت ستقع الى الوراء في حفرة علق لو لم يسارع ليماندا ويمسك بها من خصرها.

«عملية انقاذ رقم ثلاثة» ضحك ساخرأ واصبحت عادة مستحكمة. لكنك ترتعشين. لم اقل ساعانقك الآن، قلت مرة ثانية. . . انتبهى الى قدميك ونحن نمشي. لا ارغب لك ان تلوي كاحلك».

لقد تبلبل تفكيرها. كل ما تفوه به غير معقول. عودتها مع ليماندا في ضوء القمر شيء جديد تختبره للمرة الاولى في حياتها. شعور جديد ضعضع كيائها وتوازنها. لقد تغيرت حتماً. هي اليوم غيرها بالأمس. سألها فجأة كأنه ما زال يفكر فيها:

«ماذا ستفعلين بعد انتهاء عطلة الصيف؟».

«سأعود للجامعة لأكمل تحصيلي العلمي».

«اذن، انت لا تلعين دور المثقفة لفترة ما قبل الزواج. انت حقاً مهتمة بالعلم».

«نعم. احب ان اعمل في دائرة التفتيش في المتحف بعد ان انتهى من دراستي».

«أليس لديك مشروع لبناء منزل زوجي مع شخص ما، وربما اولاد».

«ليس بعد. ليس قبل سنين وسنين. فقط حين التقى الشخص المناسب».

«بالطبع. سيكون لديكما مصالح مشتركة مثل بقايا الفخار القديم، توابيت الموت. . .».

وقد برهن لها ان معلوماته في هذا الحقل، لا بأس بها، افضل مما يديه للآخرين. ثم

«اظن انك لم تلتقيه بعد؟».

فكرت ساندني في ديريك. في وجهه الجميل وحاجبيه التي تشبه الاقلام وشعره الاشقر.

«ربما اكون قد التقيته. اود ان اتأكد من ذلك مع نهاية الصيف. انه مسافر الآن».

«بالتأكيد. انت الآن في فترة تجربة، تقيمين الوضع بعدها. اذا كان غيابه قد احزنك وشعرت بفراغ فانك تحبينه، اما اذا كان العكس فإنك لا تحبينه».

«كيف عرفت ذلك؟».

«هي طريقة اتبعتها بنفسى مرة واحدة».

«هل نفعت؟ ماذا اكتشفت؟».

«اذا كانت الفتاة بعيدة عن العين فهي بالتالي بعيدة عن القلب. اكتشفت ان هناك الألوف من الزهرات الجميلات غيرها ينتظرون من يقطفها».

«وهل قطفت زهرة منها؟».

«نعم. ولكن ليس لتبقى معي دائماً».

«وهل تظن انك ستجد زهرة لتبقى معك دائماً».

لم تكن ساندني لتجرو على مثل هذا السؤال الخاص لو لم تكن تحت تأثير سحر ضوء القمر.

«اعتقد اني وجدتتها. ربما اقرر مع نهاية الصيف». كان يجيبها الآن بمثل جوابها له وهو يضحك ساخرأ.

هل يفكر بمرتا؟ كيف لها ان تعرف؟ لو سأله لظن انها تبحث من جديد عن معلومات خاصة. سأله:

«ماذا بشأن ديرميد؟ هل ستفعل شيئاً لاجله؟».

«هذا ما كنت ارغب التحدث به معك. الا اننا خرجنا عن الموضوع الرئيسي. . . ثم هربت. . . ما زلت افكر بالموضوع. علي ان اعرف ماذا نرغب مرثا بالتفصيل؟» كان يتكلم ببطء شديد. كأنه يتسلى بها.

«لا اعتقد ان عليك الانتظار لنهاية الصيف. لماذا لا تسألها الآن. . .».

«اسألها؟» استدار ليواجهها. توقفا عن السير. خلفه منزل دانكريغان تلفه الاشجار، وامامه القمر الساطع، ووجهها.

«لتزوجها». دفعت اليه بكلماتها مرة واحدة. ثم اكملت «اذا تزوجتيا ننحل جميع المشاكل. ليس كذلك؟ يمكنك ان تتبنى ديرميد وتربيته على انه

ابنك».

وقف امامها كالتمثال بدون حراك وجهه يلمع في ضوء القمر ولكنه خال من اي تعبير سألها:

«هل انت واثقة من ان هذا ما ترغبه مرتاً؟».

«لم تقل ذلك بكلمات واضحة ولكنها لمحت تلميحاً يوم كنا سوية على الشاطئ». اخبرني انها ترغب في الزواج مرة ثانية وانها وجدت من يأخذ مكان كروفورد في حياتها، ويكون اباً للديميد. لقد رسمت لي حرف (ل) على الرمال بأنه المرشح لأن يصبح زوج المستقبل». كانت تتكلم بسرعة كأنها خائفة منه.

سخر منها وقال:

«انت جمعت اثنين مع اثنين مرة ثانية».

«نعم».

لم يعلق، لكنها لحظت في عينيه السوداوين علامة عدم الرضى. استدار من جديد ليصبح في محاذاتها ليمشي قريباً في الممر المؤدي الى المنزل. وصلا الى المدخل الرئيسي حيث الدرجات، الضوء الخافت لا يكاد يضيء اكثر من رقعة صغيرة امام الباب الرئيسي للمنزل. بدأت ساندي تصعد الدرجات القليلة المؤدية الى الفسحة امام الباب.

«ساندي. انتظري لحظة» قال ليماندا. ظنت انه سيضيف شيئاً اخر عن مرتا وزواجه بها. وقفت امامه تنتظر.

«ساندي هو اسم مختصر لاسكندر ويبدو غريباً لفتاة».

«لكنه بالنسبة الي اختصار لالاسكندرا المؤنث».

«انه يجعلني اتعجب كأني امام ملكة، رابطة الجأش».

«كأنك امام الملكة الكسندرا». قالت وهي تضحك «أنا اعرف انه من الممكن ان تظن اي شيء ما عدا ان اكون ملكة لها رابطة جأش وبأس».

«صدقت. رأيي فيك هو انك طويلة، ذات رجلين نحيلتين، فتاة مغرورة، وللان لم تعرف نفسها بعد».

«اشكرك. اعتقد انك اعطيت رأيك بوضوح الليلة. قلت (شخص لا جنس معين له) على ما اذكر». كانت ترد له الكيل كيلين ومحاوره محاوره الند للند، ولديها رغبة ملحة في ان تتلهى معه خارج المنزل. الليل هادىء

والهواء عليل وقد وجدت في الأخذ والرد معه في الكلام متعة تساعدها على التقارب والتفاهم معه. وجدت ان تخصمها الدائم فيه لذة غريبة. شعور لم تألفه من قبل مع اي رجل اخر.

«اذن اسمك ساندي. دعيني افكر ما معناه. ربما هو كذلك بالنسبة الى شعورك لأنه بلون الرمال - الرمال الحريرية الصفراء».

رفع يده ولمس شعرها الناعم اللامع فوق جبينها. حبست انفاسها. شعرت باحساس غريب يغمرها. بدأت رجلها ترتجفان. تسمرت مكانها. كانت مصممة على البقاء على هذا الحال لتعرف ما الذي سيحصل بعد ذلك. تحركت يده ولا مست جانب وجهها لمسة رقيقة ثم لف بيده ذقتها بلين وحنان. لم تحاول الافلات. كانت لحظات ارتقاب كأنه ينتظر ان تتراجع الى الوراء. لحظات بمقدار ضربتين من ضربات القلب، ثم انحنى فوقها قعانقتها.

لم تقاوم. كانت طبيعة تتبع خطواته الخبيرة في العناق. لف ذراعيه حولها وهي كذلك لفت ذراعيها حوله لتلتصق به اكثر. لدقائق معدودة كل شيء حولها اختفى. توقف ليماندا أولاً ولكنه ظل ممسكاً بها قريبة اليه.

«عمل جيد من شيء لا جنس معين له سأصنع منك امرأة».

اعادا العناق مرة ثانية. كانت تتجاوب مع خلجاتها. شعرت كأن باباً مغلقاً في داخلها قد فتح لأول مرة. غمرها شعور هائل بالعطاء بدون تردد.

يمكنه ان يفعل بها ما يشاء لأنها هي تشاء ايضاً.

توقفت سيارة في المدخل الرئيسي. ضوءها وصوتها لقيها. ترك ليماندا ساندي من بين يديه وهو يشتم بصوت منخفض. توقف المحرك وفتح الباب.

«ليماندا؟ اهذا انت؟» كان صوت انثوي رفيع يتكلم بعصية، كان القادمة تهاب هذا اللقاء.

«من غيري هنا! هيلين لندسي؟» كان يخاطبها بلهجة مهينة «كنت اتعجب متى تجدين حجة للحضور الى هنا».

كانت ساندي تفتح الباب. اجفلت من لهجته، وكانت متأكدة ان المرأة الاخرى قد اجفلت بدورها من قساوة ملاحظته.

«لقد حصل حادث» كانت هيلين تخبره وهي خائفة.

«حادث». رددت ساندي في نفسها. كان كل تفكيرها ان مرتا موجودة في السيارة.

سألها ليمانند بصوت جاف:

«يا هيلين، تكلمي. ما نوع الحادث؟».

«وقعت مرتا هذا المساء في منزلنا في بروكفيلد. كسرت رجلها اليمنى. علق كعب حذاءها في السجادة وتزحلق فوق الأرضية الملمعة. طلب الي بيل الحضور لاجبارك». قالت ذلك وبقيت تنظر اليه تنتظر اوامره.

«طبعاً. لم يكن لمرتا ان تختار مكاناً افضل لكسر رجلها! كان يحاول المزاح «في منزل جراح للتجبير. اعتقد ان بيل تدارك الامر وهي الآن في المستشفى تحظى بالعلاج الناجح والعناية الفائقة».

«مسكينة مرتا». تأسفت ساندي وهي تفكر بالألم ثم خيبة الأمل التي تمر بها. ثم سألت هيلين «هل هو كسر ام التواء؟».

نظرت هيلين اليها اخيراً. كانت تتجاهلها قبل ذلك. هناك صمت. اكتشفت ساندي ان هيلين نسيتهما تماماً. شرحت لها عن نفسها قائلة:

«انا ابنة عمه مرتا، ساندي فيليبس. انا اسأل لأن بالي مشغول عليها. هل استطيع زيارتها في المستشفى؟».

«آه. انت مربية الصبي الصغير. مرتا اخبرتني عنك». كانت تتكلم بلهجة متكبرة ومتعالية «لا يمكنني ان اخبرك بشأن الكسر لأن صور الاشعة لم تظهر بعد، حين تركت المستشفى. عليك الاستفسار بنفسك عن مواعيد الزيارات».

قالت ذلك واستدارت للاحية ليمانند كأنها تصرفها. بالتأكيد. لا وقت لديها لمربية تافهة تسمح لنفسها ان تكون في مشهد غرامي بين ذراعي كالدويل صاحب دانكريغان وسألت:

«ليمانند. اريد ان احادثك بشيء هام يخصنا».

«الوقت متأخر وعلي القيام باكراً لأعمال هامة». بدأ يتحرك. شعرت ساندي انه يرفضها ويتملص منها.

«ارجوك يا ليمانند» لهجتها المترفعة قد تغيرت لما يشبه التمني والترجي. «لم نتقابل منذ فترة طويلة. كنت دائماً افكر فيك. واريد ان اعترف لك

بخطائي، كنت غبية ومغفلة. لقد صدقت كروفورد حين قال لي انت...».

«هيلين، ليس هذا لا المكان ولا الزمان المناسب لهذه الاحاديث». «بل... قل...» لم تكمل حديثها، بل نظرت الى ساندي. احست ساندي ان عليها الانصاف.

«مساء الخير». قالت ساندي قبل ان تدخل المنزل. اغلقت الباب خلفها. صعدت السلام بهدوء. وهي تشعر بثقل غريب في قلبها. لحظات العناق مع ليمانند في ضوء القمر قد انتهت. انقطعت بوصول هيلين. لو لم تخضر هيلين؟

ارتجفت ساندي قليلاً، ليس من البرد او الخوف بل من خيبة الأمل. هرعت الى غرفتها دخلت فراشها. بدأت تفكر في مرتا. كم من الوقت يستغرق شفاء الكسر؟ ستة اسابيع على الاقل. عليها الاعتناء بديرميد لحين شفائها. ربما تأخذ الصبي معها الى هامشير الاربعاء المقبل، موعد سفرها بعد ان تنتهي ضيافتها التي حددها ليمانند باسبوعين. ستقترح هذا الحل على ابنة خالها غداً عندما تزورها في المستشفى.

ربما لا يسمح ليمانند لها بأخذ ديرميد بعيداً عن دانكريغان. ذلك يتوقف على ليمانند وكيف سيتصرف بعد ان اخبرته برغبة مرتا في الزواج منه. لقد تفاجأ حين اخبرته. لكنها مقتنعة في قرارة نفسها بأن ليمانند متعلق بابنة خالها في سره. ومن اجلها حضر الى كريغان ثم لحق بها الى قاعة الرقص ليسألها اسئلة تتعلق بصداقة مرتا وبيل لندسي. لأن لندسي كما قال جوني هو منافسه الى قلب مرتا. هي تعرف مرتا جيداً ولا تستغرب ان تكون هي التي دبرت هذه الخطة لتحرض ليمانند ليتحرك ويتصرف.

كل شيء اخر حصل هو من تأثير ضوء القمر عليها ولا يعني لها شيئاً. عناق الفتاة التي مشى معها الى منزلها، قبل وداعها الى النوم، شيء طبيعي بالنسبة الى ليمانند. هو يفعل مع كل فتاة يخرج معها كجزء من المرح المنتظر بعد الرقص في القرية. لو لم تكن هي معه لكانت الساقية الشقراء... لقد تأكد لها بالبرهان القاطع ان هناك عاطفة دافئة في داخل الرجل الذي يلبس درعاً.

سحر القمر. كل ما حصل معها سببه هذا السحر، ولا شيء خلاف

ذلك. اغمضت عينيها واستسلمت للنوم قبل ان يتمكن منها فارس
دانكريغان ويقضي على راحة بالها للأبد.

٥- انقاذ أم ورطة

استفاق ديرميد يغني كعادته عندما يستيق في الصباح. ذهبت اليه
ساندي وأخبرته ما حصل لوالدته. تقبل الانباء بهدوء ثم وضع يده
الصغيرة في يدها وقال:

«ستهتمين بي يا ساندي، اليس كذلك؟».

أخذته الى المطبخ من أجل الفطور. أخبرتها نان ان ليماندا قد اتصل
بالمستشفى يسأل عن مرتا. انها علامة حسنة، ان يهتم ليماندا في أمر مرتا،
مع انه كان دائماً يظهر عكس ذلك.
«كيف حالها؟» سألتها ساندي.

«صحتها جيدة مرتاحة، يمكنك زيارتها بعد الظهر. ليماندا يقول انه
سيصحبك مع ديرميد لزيارتها بعد الظهر في سيارته».

«هل يعني ذلك انك لن تذهبي في نزهة بحرية برفقتي انا ورون؟»
سأل جوني وهو يجلس في مكانه المعتاد الى الطاولة. شعره بدون تمشيط
وعيناه حمراوان اشارة انه اطلال السهرة الليلية الماضية ولم ينم كفايته. كان
مكثراً كعادته في ضحكة عريضة.

«يجب ان ازور مرتا مع ديرميد لأطمئن عليها. اعتذر يا جوني. يمكنك
دعوة فتاة أخرى لمرافقتك».

«لا أظن». ثم غمز لها بعينه اشارة تعني انه يعرف سرّاً وقال: «هل
تتمتع بالسير بصحبة ليماندا في ضوء القمر؟ لقد غضب رون قليلاً لما
اكتشف انك تركت المرقص بدون ان تحببيه».

«لم اقصد ان أنترك. خرجت لاستنشق بعض الهواء النقي. لقد كان

الجو خائفاً داخل القاعة من كثرة الازدحام. لما عدت كنتما قد خرجتما. اظن ان رون وجد صديقة غيري ترافقه».

«لا. ليست صديقة خاصة. هي شيلا غرانت التي عادت الى كيركتون في عطلة قصيرة. دعنا لزيارتها في منزلها. وانت أيضاً كنت مدعوة معنا. اعتقدنا ان لديك مشاريع أفضل». وعاد يغمز بعينه مرة ثانية. احست بحمرة الخجل تملو وجنتيها، «ستبقين فترة اخرى هنا لأن مرنا طريحة الفراش، أليس كذلك؟».

«لا أعرف بعد. هذا يتوقف على دعوتي للبقاء».

«ولكن، من يرعى ديرميد اذا تركت؟».

«والدتك نان».

«لا اعتقد أنها تستطيع. ستذهب الاثنين المقبل لزيارة شقيقتها في سكاربورو منذ أشهر وهي تخطط لهذه الزيارة. لقد اتفق ليماندا مع زوجة ويلي برودي لتحضر كل صباح لتساعد في التنظيف والطبخ ولكنها لا تستطيع المبيت هنا، ولا رعاية ديرميد».

«اذن، اصطحب ديرميد معي الى هامشير عند عودتي».

قالت نان:

«من المؤسف ان تأخذه الآن، بعد ان بدأ يعتاد علينا. منزل الصغير هنا، حيث تربي والده. انا متأكدة ان ليماندا سيطلب منك البقاء لتساعدية».

لم تكن ساندي متأكدة من ذلك. بعد الظهر، ذهبت الى المستشفى برفقة ليماندا، كان كعادته منطوياً، قليل الكلام وتصرف كسابق عهده، كان لا شيء بينهما قد حصل الليلة الماضية. ربما لم يحصل أي شيء. كلها أوهام بل أحلام. منذ وصلت الى دانكريغان والفارس الاسود ينقذها من أخطار تحقيق بها. عليها ان تماشى ليماندا وتصرف هي أيضاً كأن لا شيء قد حصل الباردة. لقد حضرت الى دانكريغان من أجل هدفين، اولاً: تأمين مصاريف تعليم ديرميد. ثانياً: زواج مرنا من ليماندا.

وجد ليماندا مكاناً ليوقف سيارته قرب المستشفى. طلب من ساندي ان تنتظره قليلاً في السيارة. عاد بعد خمس دقائق يحمل ورداً أحمر، وعنباً وعلبة شوكولاته. انها علامة ثانية حسنة من ليماندا. سرت لاعتقادها ان مرنا

نجحت أخيراً في اجتذاب ليماندا...

تقع المستشفى في ضاحية كيركتون، نظيفة وهادئة جداً. في الغرفة، كانت مرنا مستلقية ورجلها اليمنى معلقة قليلاً الى اعلى، تحيط بها الضمادات والاربطة. وتبدو جميلة للغاية بالرغم من كل ما قاست من تعب وألم. وجهها الشاحب يحيط به شعرها الاحمر اللامع.

فرحت مرنا كثيراً برؤيتهم. رفعت ساندي ديرميد لوالدته لتقبله ثم انحنت على مرنا تعانقها. فتحت مرنا ذراعيها لاستقبال ليماندا... تردد قبل ان يقترب منها وقبلها على خدها ثم قدم لها باقة الورد الاحمر التي كان يخفيها خلف ظهره حين دخل.

«ما اجملها. كيف عرفت اني مولعة بالورد الاحمر؟». قربتها من أنفها. شمعتها ثم قالت مخاطبة ساندي «خديها وجدي لها مزهرية».

قدمت ساندي العنب كما قدم ديرميد علبة الشوكولاته. جلس ليماندا على كرسي قرب سريرها وحمل ديرميد وأجلسه على ركبته. كانت مرنا تثرثر معه. منظر عائلي اليف. اي شخص يدخل الغرفة سيعتقد انهم أب وأم وابنتها...

«انها نعمة، بعد كسر رجلي، ان احظى بهذا الاهتمام من الجميع؟ أليس سخيفاً ان اكسرها؟».

سألته ساندي.

«كيف كان الكسر؟».

«الكسر فوق الركبة، ولهذا السبب هي مشدودة الى اعلى. قال بيل ان علي البقاء في المستشفى من عشرة ايام الى اسبوعين». نظرت لمخاطب ليماندا وقالت: «أنا متأسفة جداً. يجب ان تبقى ساندي هنا فترة اخرى لتعتني بديرميد».

نظرت ساندي الى ليماندا. ردّ عليها بنظرة ساخرة بعد ان ضيق عينيه قليلاً كأنه يفكر ان مرنا قد كسرت رجلها عن سابق تصميم، كي تبقى ساندي فترة أطول في دانكريغان. لكن ساندي أسرعت تقول:

«يمكنني ان آخذ ديرميد معي الى هامشير يوم الاربعاء».

خيم صمت ثقيل. عبست مرنا. كان ليماندا يفكر تفكيراً عميقاً. مال بكرسيه الى الوراء ولم ينظر الى أحد.

«لا أريدك ان ترحلي!» قال ديرميد «لا أريد الذهاب الى هامشير. أريد البقاء هنا لأذهب الى الشاطئ كل يوم وألعب مع لورنا وايبوان!»
«من الواضح ان ديرميد قرر» كان تعليق ليماندا على الموقف برمته. عيناه السوداوان كانتا خاليتين من أي تعبير. ثم نظر الى ساندي وقال: «الرأي هو رأيك. هل من الممكن ان تبقي في دانكريغان وتهتمي بديرميد لحين شفاء مرتا».

«ارجوك يا ساندي. قولي نعم. سأشفي بسرعة اذا تأكدت ان ديرميد قربي وانت تهتمين به».
لا يمكنها الرضا حتى ولو كان ليماندا يعارض بقاءها. عليها ان تبقى من أجل الصغير فقط.
«نعم أستطيع».

«هل من شروط جديدة؟» سألتها عن الاتفاقية الجديدة. نظرت في عينيه ورات ومضة شيطانية سريعة جعلت نبضها يسرع. قالت:
«شرط واحد فقط».
«ما هو؟».

«سأبقى، شرط ان تسمح لي بأن احفر خلف الحصن او جانب التلة قربه. افتش عن بقايا أثرية تبرهن ان هناك حصناً قديماً في دانكريغان يعود تاريخه الى القرن السادس».

تبادلا النظرات لدقائق كان لا أحد منهما في الغرفة...
«يمكنك ذلك متى رغبت، ولكن لا تتعمقي كثيراً، ثم لا تخفري مكان المزروعات. عليك الانتباه الى ديرميد والمساعدة في أعمال المنزل في غياب نان».

«وهل سترحل نان؟» استغربت مرتا «لم اكن اعرف. متى ستعود؟»
«لست متأكدا». قال ليماندا واكمل «ستبقى مع شقيقتها بضعة أسابيع. لديها النية في مشاركتها في ادارة الاوتيل التي تملكه اختها».

سألت مرتا مهمومة:
«من سيدير المنزل في دانكريغان في غيابها؟»
«يا زوجة أخي العزيزة لم تنق بعد على ذلك». قال هذا ثم وقف ليخرج «مبدئياً السيدة برودي ستعمل بعض الوقت في الصباح. لدي الآن

موعد عمل. ساترككما لتثرثرا. سأعود بعد نصف ساعة. سآراك يا ساندي مع ديرميد في مدخل المستشفى. نظر الى مرتا ثم قال: «اعتني بنفسك. افعلي كل ما يأمر به الجراح. هو يعرف ما هو أفضل لك. أراك فيما بعد».

نظرت مرتا الى ساندي مستغربة كل هذا اللطف، عن غير عادة.
«ما الذي غيره؟ كم هو لطيف. كدت اظنه زوجي كروفورد. هل لديك أي تفسير لهذه التغيرات؟».

قالت ساندي مستغربة:
«ربما لأنني اخبرته عن رغبتك؟».

سألت مرتا:
«ماذا تقصدين؟». اعتقدت أنني بعد هذه الحادثة أصبحت لا أفهم بسرعة. وقعت البارحة على مؤخرة رأسي بالاضافة الى الكسر في رجلي ربما هناك شعر بسيط في رأسي. قال بيل انه يندمل ببطء. ساندي ان بيل لطيف للغاية. بدأت اعتقد ان الحادثة التي حصلت لي كانت نعمة هبطت علي من السماء. ليماندا جلب لي الورد وبيل يهتم بي كثيراً... ماذا قلت له عن رغبتك؟».

«هل تذكرين عندما سألتني ليماندا ما اذا كنت اكيدة من انك لا ترغين شيئاً آخر غير تعليم ابنك؟».

«نعم اذكر...»
«لقد اخبرته انك ترغين في الزواج مرة ثانية!».

سألت مرتا
«كيف كانت ردة الفعل عنده؟»
«لست متأكدة، لم يقل شيئاً. ربما هنا تكمن أسباب تغييره اليوم. اعتقد انه شغوف بك يا مرتا ويخفي عواطفه عنك لانك ترملت منذ فترة قصيرة. هو ايضاً لا يعرف شعورك نحوه».

حدقت مرتا بها ثم ضحكت ضحكة هستيرية.
«ربما تكونين على صواب».
«اعذريني لأنني اخبرته. كنت سأسافر بعد أيام قليلة. ظننت ان اعلامه برغبتك قد يساعده في الاسراع باتخاذ القرار المناسب ليحل المشكلة المتعلقة

بثلاثتكم، هو وأنت وديرميد.

«ربما هذا يساعده على المدى البعيد». تمتمت مرثا وقد ظهر العيوس على جبينها.

«هل أنت تعب؟» تعجبت ساندي لماذا أثار حديثها غضب مرثا وكانت تنتظر أن تراها مهللة فرحة لأنها انتصرت عليه أخيراً. لقد وجدت نقطة ضعفه. لقد تأكدت بما لا يقبل الشك، أنه إنسان دافئ، يتفاعل مع عواطفه وإحاسيسه كأي رجل عادي. وما تصرفاته القاسية وبروده وعدم اكتراثه سوى اقنعه يختفي خلفها الرجل الحقيقي.

«أني تعب قليلاً» تنهدت. لقد قال بيل بأنني سأشعر بتعب من جراء الحادث، ناتج عن الألم الذي كابده. . . هل هيلين هي التي أنبأتكم بأنني وقعت؟»

«نعم. كنا قد وصلنا لتونا من مرقص القرية».

«من؟» أحست مرثا أن في الجو مغامرة عاطفية.

«أنا وليماند». اجتهدت ساندي أن تخفي حمرة الخجل عن وجنتيها حين تذكرت ماذا كانت هي وليماند يفعلان ساعة وصلت هيلين بالخبر.

«آخر مرة رأيته كان في الفندق يشرب برفقة الساقية الشقراء. اذكر أنني قلت وقتها أنه يشبه شقيقه في تصرفه في هذا الحقل أيضاً بالإضافة إلى الشبه في شكلها. . . ثم حصل تبادل في حلبة الرقص. اليس كذلك؟» سألت مرثا.

«نعم» أجابتها ساندي بصوت خفيض «فقط ليسألني عنك. كان قد رآك مع بيل لندسي وأراد أن يعرف مني كيف توصلت لتوطيد هذه الصداقة».

«أوه. أرجو أن لا تقف الخصومة بيني وبين بيل وتعمل صداقتنا صعبة. أتمنى أن لا يعتقد ليماند أن له الحق في اختيار اصدقائي أيضاً».

«لا. لا أظن ذلك. أنه فقط يتعجب كيف وجدت اصدقاء من تلك الضاحية. الظاهر أن والدته هيلين، في الماضي، لم ترض عن صداقة قامت بين هيلين وكروفورد. ربما كان هذا هو سبب تصرف هيلين الغريب وصدها لك وتعلقاتها الغريبة».

«تظنين أنها تغار مني لأنني تزوجت كروفورد وفشلت هي».

«هذه هي الحقيقة».

«فكرت لك صائبة يا ابنة عمي الصغيرة. إن هيلين تغار مني لسبب آخر غير هذا السبب».

كان ديرميد يأكل الشوكولاته لاهياً عنها. طلبت مرثا إلى ساندي أن تأخذها منه قبل أن يأكلها كلها ويمرض. ثم قالت له «عزيزي ديرميد الشوكولاته لي وليست لك؟».

بدأ ديرميد في نوبة صراخ وغضب لأن ساندي أخذت منه الشوكولاته. ودعت ساندي مرثا بسرعة بعد أن أخذت ديرميد إلى الحمام حيث غسلت يديه ووجهه ونزلت به إلى المدخل. لم يكن قد حان موعد رجوع ليماند بعد. أخذته إلى الحديقة العامة القريبة من المستشفى، حيث لعب قليلاً وعادت أدراجها إلى مدخل المستشفى. وهي في طريق العودة لمحت ليماند ويقربه هيلين يقطع الشارع عائداً إلى المستشفى. إذن، هذا هو موعد العمل. لقد تمت ترتيبات هذا اللقاء بينها الليلة الماضية.

«هل تأخرت؟» سألتها ليماند. كان يبدو مرحاً على غير عادته. مشى قربها. تلفتت حولها لترى أين اختفت هيلين.

«دخلت إلى المستشفى». كان ليماند عرف سؤالها بدون أن تسأل «ستعمل هنا لنهاية الأسبوع بديلة عن طبيب غائب في اجازة. ستقوم مؤقتاً في هذا العمل لحين أن تركز عيادتها الخاصة. ماذا ترغبين في أن تفعل؟» «ماذا تفعل؟» تساءلت ساندي وهي تفكر في نفسها، كيف يمكنه وهو المتكبر الأمر الذي اعتاد أن يفعل ما يريد وعلى الآخرين أن يرضخوا لما يقرر ويرضوا به. هي المرة الأولى التي سألها رأياً.

«لدينا كل بعض الظهر وديرميد معنا. أنا لا أعقل ضروري لدي. هل ترغبين في التسوق؟» كان يفتعل المرح. أنه ليس من طبعه. لا يستطيع أن يمشي خلفها من متجر لآخر وهي تتبضع وتشتري. رمقته بظرف عينها. حاولت أن تقيم مزاجه الجديد. لم ترف في عينيه السوداوين أي تعبير يساعدها على الفهم.

«هل تعتقد أن باستطاعتنا رؤية الركاب (بقايا حصن رملي قديم)؟» «سألها باستغراب كأنه يسمع الكلمة للمرة الأولى: «ما هو؟».

«هي تربة عالية، ترتفع عن سطح الارض بضعة اقدام، ذكرها والدك في مخطوطاته التاريخية، وتبعد بعض الاميال من هنا. انه مكان تاريخي يوم كانت البلاد قسماً من المملكة. في هذا المكان كان الملوك الاقدمون يعقدون اجتماعاتهم العامة ويضعون القوانين. أحب أن أراها. انها من المواقع التاريخية المهمة هنا».

نظر اليها ملياً. ضاقت عيناه السوداء قليلاً. ظنت، لوهلة وجيزة، انه سيرفض طلبها. ثم تبسم، وبالتالي ضحك قلبها، وأسرع في ضرباته...

«كان علي ان أعرف مسبقاً أن التسويق لا يروقك... نذهب الى الركام الذي قرأت عنه حتى لا تنهمني، مرة ثانية، بأنني لا أهتم للماضي». جلست ساندي في المقعد الأمامي ومعها ديرميد. كانت تتابع المناظر حولها باهتمام وتراقب وجود تلة من التراب وسط الحقول. بدأ الركام يظهر من بعيد. التلة مرتفعة أكثر مما انتظرت... جوانب الركام منحدره وقمته مسطحة.

أشارت ساندي:

«ها هو الى اليمين».

«يمكننا ان نوقف السيارة بالقرب منه. الطريق خالية من السير». المكان حولها خال تماماً. كانت أول خطوة خطتها ساندي بجانب الحائط الحجري القديم والذي يشكل طرف الركام. شعرت ساندي بالشعور نفسه الذي انتابها يوم زارت حصن دانكريغان، كأنها تخطو الى التاريخ، الى العصور الماضية. رائحة أعشاب وأزهار برية، وصوت قبرة تغني في الهواء النقي، مياه النهر تعلن نغماً في انسيابها، اختفاء ضجيج السير يعزز دقة الحس، حددت في الركام أمامها. للحظة تخيلت حشداً من الناس قد حضر ليرى ويسمع اصدار الاحكام على كبار المجرمين.

«هنا كانت محكمة العدل في الزمن الماضي».

«اكمل درس التاريخ». كان ليماندا يضايقها. أجفلت. عادت للواقع. «بالحقيقة انني أجهل هذا المكان ولكنه مثير. ماذا يمثل لك؟». «أنه مثل مدھش لبقايا حصن قديم. القسم الاوسط للركام مع القمة المسطحة يشكلان القسم الأساسي للحصن. حوله المحكمة وملصق بها

منصة الحكم. تحتها الخنادق التي تملأ بالمياه لتحمي الحصن من الهجمات والاعتداءات. لقد استغرق بناؤها زمناً طويلاً أو ربما استنفد المئات من العمال».

«هل يوجد ما يشبه الركام في حصن دانكريغان؟».

«ليس منظوراً. والدك ومن قبله ماسح اراضي محلي كانا يؤمنان بوجوده. لقد وجد والدك بقايا بعض الآثار التي تؤيد نظريته. لم يخبرك بما وجد؟».

«كلا. جميع حفرياته تمت بعد رحيلي منذ ١٢ سنة. اتصالي معه لم يكن على مستوى علمي. لما عدت قبل سنتين ونصف تقريباً كان قد أصيب بنوبة فالج شلته عن الكلام السوي. هل تعرفين ماذا وجد؟». «دبوس للزينة وكتلة خزفية معدة للصب في أشكال مختلفة».

«انت ترغين في المزيد من الحفريات لعلك تعثرين على أدلة جديدة». «نعم. لقد وعدني رون كارسون أن يجلب لي صوراً فوتوغرافية، اخذت من الجو، للمنطقة كلها، يوم كانت تحت سلطة والده. اذا نظرنا في هذه الصور يمكننا الجزم بوجود أشكال مشابهة للركام والتي تبرهن بدورها على وجود مستوطنين قدماء يعود تاريخهم الى القرن السادس».

«فهمت» ونظر الى أعلى الركام الذي يرتفع كالبرج.

«لواثر على الدبوس والقطعة الخزفية التي وجدتهما والدك في حفرياته؟ هل لديك فكرة أين يمكن أن تكونا؟».

«انظري مجدداً داخل المكتبة. من المؤكد انها هناك».

بينما كانت تثرثر مع ليماندا، أخذ ديرميد يتجول في المكان لوحده. رآه يقفز بين العشب باتجاه النهر.

«انتبه يا ديرميد» صرخت وركضت لفورها خلفه. اقتربت من ضفة النهر. سمعت صوت المياه تصب من الأعلى ثم شاهدت شلالاً صغيراً تتدفق مياهه من علو بضعة أقدام، في بركة صغيرة. أراد ديرميد أن يرى الشلال. تعثر بجذع شجرة ووقع في البركة.

لم تكن المياه عميقة ولكن المياه كانت تلف بعد انحدارها من الأعلى وتشكل تياراً لا يستطيع الصغير مقاومته. حملت المياه جسمه الصغير وجرفته الى مصب النهر.

«ساندي!» صرخ طالباً مساعدتها. بدون تردد نزلت خلفه في النهر. كانت مياه النهر تصل الى خصرها. تحركت بسرعة نحوه. كان يحرك رجله كبحر في دروس السباحة سابقاً دقائق قليلة ثم وصلت اليه وامسكت به. كان كتلة مبللة. احاق بكلتا ذراعيه عنقه. بدأت تسير نحو الضفة ولكنها انزلت، وبالتالي فقدت توازنها. جلست وسط الماء. وجد ديرميد ان الوضع الجديد ليس آمناً. بدأ يصرخ طالباً النجدة. لم تستطع الوقوف من جديد. كلما حاولت النهوض كانت تنزلق من جديد. كان الصغير يعوقها عن النهوض. قال تطمئنه:

«امسك بي جيداً يا ديرميد. هذه المرة سنهض».

وبالفعل استطاعت ان تقف هذه المرة لأن ليماندا وصل لنجدها. أمسك الصغير وحمله. ولدهشتها ذهب ديرميد لتوه الى حضن عمه ولف ذراعيه حول عنقه كأنه شعر أن الأمان لديه. وصل ليماندا بالصبي الى الضفة ثم عاد ليساعد ساندي.

كان شكلها فوضى. خلعت حذاءها لتفرغه من الماء. ثوبها مبلل لنصفه. وشعرها أصابه البلل. أما ليماندا فقد حافظ على كامل اناقته المعتادة. خلع حذاءه قبل ان ينزل الماء وكذلك خلع سترته ورفع رجلي بنظونه الى اعلى.

وضع ليماندا ديرميد على ركبته يخلع عنه الثياب المبللة ثم خلع ليماندا كتزته السوداء والبسها للصغير. ونظر الى ساندي وقال:

«آسف. ليس لدي أي شيء البسك اياه».

«اوه. لا يهم. انا بخير. شكراً لانقاذي مرة ثانية من الخطر».

«كنت اليوم انت المنقذة. من حسن حظ ديرميد أنك سريعة الحركة».

نظر الى ثوبها المبلل، قدميها العاريتين، الى شعرها المبلل وقال «انك تذكريني بانسانة كنت اعرفها».

«من هي؟»

«تذكريني بوالدتي... أنا لا أقصد أنك بالنسبة الي تمثيلين الأم بحنانك او أنك تشبهينها بشكلك... انك سريعة الحركة في المواقف الحرجة، انك مندفعة بل متهورة. لست أنانية، متحمسة للتاريخ. هي أيضاً مثلك مندفعة ومتهورة وكانت متحمسة جداً للابحار وقد قادها حماسها للغرق».

«هذه أول مرة تذكرها».

«كنت أنا وأخي كروفورد في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرنا لما غرقت. اني اذكرها جيداً...» قام واقفاً بعد ان وضع ديرميد على كتفه واكمل «تركت سترتي وحذائي فوق. نللمها ثم نعود للبيت. لقد تعب الصغير».

في طريق العودة جلس ديرميد في حضن ساندي. الصمت خيم على الجميع. كانت ساندي تفكر وتعلم بالركام ثم بفيليدا والددة ليماندا والتي لم تعد شبحاً يخيف بل تجسدت امرأة عاشت بحماس وماتت وهي تتابع حماسها... ثم فكرت في هيلين لندسي ثم في مرثا. أرادت ان تثبر ليماندا. اخبرته ان الورد الأحمر قد أعجب مرثا كثيراً. لم يجب بأية كلمة. اكتشفت انه بدأ اعتزاله من جديد. تعجبت في نفسها كيف رضي أن يأخذها الى الركام. تذكرت ما حدث معهم وقررت انه سوف لن يأخذها لأي مكان آخر. ضحكت ساخرة من نفسها وقالت، من الآن فصاعداً سيبتعد عني لانني مبالاة للوقوع وقد تعب من انقاذي.

حين وصلت الى المنزل شعرت بسعادة كبيرة، وراحة بال. انه امان وراحة. اصرت نان على ان تحمم الصغير بنفسها. طلبت الى ساندي ان تسارع في تغيير ثيابها المبللة. خلال الطعام سردا على نان اخبار مرثا ثم زيارتها الاثرية للركام. بعد الطعام اخذت ساندي ديرميد لغرفته لينام. نام لفوره. عادت الى المطبخ لتشرب فنجاناً من الشاي مع نان. خرج ليماندا بعد العشاء، وجوني ما يزال في كريغان.

«اخبرني ليماندا انك مسافرة ومن الممكن ان تستقري في سكاربورو وستعملين في فندق شريكة لشقيقتك».

«كانت تصر علي منذ فترة. في الماضي لم أشأ ان أترك كافن لوحده. الآن لا أحد يحتاجني. جوني كبير ويستطيع ان يعتني بنفسه وليماندا سيتزوج قريباً».

سألها ساندي بلهفة

«حقاً هل هناك فتاة معينة؟».

«لا أحداً يعرف ما في داخله. هو كتوم، كوالده، ولا يحب ان يشاركه الآخرون في اسراره. ولكنه لا يستطيع ان يعيش بدون رفقة امرأة. هو

هادىء وبارد الطبع ولكنه يحمل دماً حاراً في عروقه، دماء كالدويل». فكرت ساندي في وضع نان. هل كانت عشيقه كافن. انها ايضا تحمل دماء كالدويل في عروقتها ومن الطبيعي ان يكون دماً حاراً، في صباحها. «أخبرني ليماندا ان والدته كانت تحب الابحار ومتحمسة له». قالت ذلك نجر نان للحديث عن فيليدا.

«هذا صحيح. لقد كانت دائماً حاضرة للنزهات. كانت الحياة تدب في عروقتها. شجعها كافن على هوايتها في الابحار واشترى لها مركباً لهذه الغاية. كانت الاشاعات كثيرة حولها. لأنها تمضي الصيف كله في نادي اليخوت، يوماً مع شلة من أصحابها. تكلم الناس عنها وعن أصحابها من الرجال الذين عرفتهم. لم تكن تأبه ابداً لكلام الناس. كانت متهورة ومندفعة. ولما اشترى ستيوارت لندسي مركباً جديداً وأراد ان يجربه، لم يتقدم لمرافقته في ذلك اليوم غيرها. كانت الرياح شديدة عاتية...»

«هل ستيوارت قريب ليل لندسي؟»

«انه والده. يمكنك ان تتصورى الفضيحة حين عثر على الجثتين في المصب. كانت الاشاعة التي دارت، أنها كانا في صدد الهرب سوياً. هذا ما كسر قلب كافن».

«هل في الاشاعة شيء من الحقيقة؟»

«من يعرف؟ انا اعرف فيليدا ولا اظن أن هناك أية صحة لها. فقط هي وستيوارت يعرفان الحقيقة. بموتها ماتت الحقيقة...» ثم قالت: «ستبقين هنا لترعي ديرميد لحين شفاء مرتا؟»

«نعم». كانت نان تحرك فنجان قهوة ساندي لتقرأ لها طالعتها. سألتها ساندي: «ماذا ترين في فنجانتي؟»

«أرى رجلاً اسمر، جميلاً، في طريقك. هذا لا يستغرب طالما انت في هذا المنزل. أرى امرأة طويلة، ليست ابنة خالك...»

«انها هيلين لندسي» خرج الاسم من بين شفتي ساندي بدون سبب معين. «ما الذي جعلك تفكرين بها». نظرت اليها نان بتعجب. «رايتها اليوم بعد الظهور في المستشفى. رأيتها تتكلم مع ليماندا. هل تعرفينها؟»

«طبعاً. لما كانت شابة يافعة كانت تحضر دائماً الى هذا المنزل من أجل التوأمين لتلعب معها. منعها اهلها من القدوم اليها بعد موت فيليدا. كانت تلتقيها خارج البيت. ولما كبرت سافرت ولم تكن لتعود إلا في العطل المدرسية مثلها. كانت تحضر الى هنا وتسألني اين تجدتهما؟ كأنني اعرف؟ انها كالنسران، ولم يسلم أحد من شيطنتها. سمعت ان هيلين عادت من الخارج وهي التي اخبرت ليماندا عن حادث مرتا. ستعود. انها هنا في مستقبلك. احذريها. انها صاحبة مقالب وربما تسبب لك المتاعب».

مريوم الاحد. ثلثة الاثنين. سافرت نان الاثنين الى دمفريز برفقة جوني. من هناك ستستقل القطار الى كارليزل ثم تغير الى قطار آخر يأخذها الى الشاطئ الشرقي. كذلك وصلت صباح الاثنين السيدة برودي من أجل تدبير المنزل في غيابها، الغسيل والتنظيف والطبخ. كانت ساندي متفرغة لديرميد ورعايته صباحاً. في اثناء قيلولته بعد الغداء، ذهبت ساندي الى خلف الحصن من أجل الحفريات. نظرت حولها متفحصه. لم تر اي شيء يدل على وجود ركام بالقرب من الحصن. عادت الى المنزل. ولما استفاق الصغير أخذته معها لجمع البيض وتعليبه. وبعد ذلك ذهبوا الى الشاطئ ليلعب مع ابوان ولورنا لندسي. عادت في الخامسة لتحضير الشاي والعشاء. بعد العشاء أخذها جوني بسيارة ليماندا الى كيركتون لتزور مرتا في المستشفى.

مرت أيام أخرى متشابهة. لم يحصل أي شيء غير طبيعي. في يوم ماطر، وجدت ساندي أن الفرصة سانحة لتدخل المكتبة تفتش عن الدبوس والعجينة الفخارية التي عثر عليها كافن كالدويل. جلبت لفورها أدوات التنظيف وحملت السلم الصغير من خلف الباب وبدأت عملية التنظيف التي وعدت ليماندا ان تفعلها قبل ان يطلب خبيراً من المتحف لتقييم الكتب وآخر لتقييم الأثاث. كانت السلم مخربة نوعاً ما ولكنها نقي بالحاجة. صعدت السلم وبدأت في الرف العالي الى يسار المدفأة. كانت تأخذ كل كتاب تمسحه من الغبار وتضعه على السلم قرب رجلها. كانت تنوي ان تنظف الرف قبل إعادة الكتب اليه.

معظم الكتب الموجودة تبحث في تاريخ الجيش والحروب. تصفحتها. كانت منهمكة في القراءة حين خاطبها ليماندا وهو واقف بالباب. أخافها

صوته فوق الكتاب من يدها واحد صوتاً مكتوماً.
سألته:

«ماذا قلت؟». مشى نحوها ليلتقط الكتاب عن الأرض ويعطيها إياه.
منذ خرجا إلى الركاب، لم تكن تراه، إلا وقت الطعام. عاد لانزله
السابق. كان يلبس لباس العمل في الحقول ويتعلل جزمة مطاطية. لو
كانت نان موجودة لطلبت إليه أن يخلع جزمته قبل أن يترك المطبخ إلى داخل
المنزل!

«كنت أسألك إذا كان السلم آمناً».
«اعتقد ذلك. لكنني ما زلت بطيئة في عملي ولم أحرز تقدماً. ما زلت في
الرف الأول. إن جميع الكتب الموجودة ملذنة وأنا أحاول أن أعرف إليها».
«هل تخليت عن الحفريات؟».

«كلا. وجدت من الأفضل أن انتظر الصور الفوتوغرافية المصورة من
الجو. أأمل أن يجلبها رون الليلة، كما وعد. من خبرتي السابقة في هذا
المجال، الصور تؤكد لي وجود مكان الركاب وبالتالي يسهل عليّ تحديد
منطقة الحفريات. دخلت افتش عن الآثار، وتذكرت أنني وعدتك بتنظيف
الكتب».

تمتم قائلاً:

«لست مجبرة على هذا العمل».
«أريد ذلك». شعرت فجأة أنه يراقبها بعينه السوداءين. تلهت عنه
بكتاب من على الرف وبدأت تنظفه.

سألها ليماند:

«ما هي آخر الأنباء عن مرتا؟».
«إنها تتحسن. لم يسمح لها بيل بمغادرة الفراش بعد. ربما يسمح لها
بمغادرة المستشفى في نهاية الأسبوع المقبل. هذا يعتمد على حسن استعمالها
للعكازين. ثم هناك بعض الترتيبات الضرورية. علينا تحضير غرفة نوم لها
في الطابق الأرضي. هل تعتقد أن باستطاعتنا تدبير هذا الأمر؟».
«أعتقد أننا نستطيع تغيير غرفة الطعام إلى غرفة نوم لها. اطلبي من
جوني مساعدتك لنقل الأثاث إليها». أجابها بدون اكتراث ثم رفع يده
وأمسك بكتاب من الكتب المكدسة على السلم. أحنى رأسه ليتصفح.

حدقت ساندني بشعره الأسود وهي تقول في نفسها: أي لغز هو ليماند.
كان بإمكانه أن يسألها عن مرتا خلال الطعام في الأسبوع الماضي. تعتقد
أنه لم يكن يصغي إليها حين حدثته عنها. سألته وهي تلومه بلطف.

«مرتا تتعجب. لماذا لم تزورها في المستشفى مرة ثانية؟».
«ولماذا أزورها مرة ثانية؟». أجابها ببرود وهو يتصفح الكتاب. «أنت
تذهبين يومياً. كل ما ترغبه مرتا، أعرفه منك. الست الرسول بيننا؟ أليس
هذا دورك؟». هو يذكرها بالاتفاق بينهما. تمنّت لو تضربه بكتاب على
رأسه. أنه يضايقها. اكمل: «هل لديك رسالة جديدة لي؟». نظر إليها
بمكر. شعر أنها تضايقت منه.

ردّت عليه بغضب.

«أنا... أنا لا أستطيع إلا أن أفت نظرك!».

«لماذا؟ ماذا فعلت؟».

«أنه شيء لم تفعله... يمكنني القول أنك تجهل كيف تغازل امرأة».
سألها بمكر وسخرية.
«من عليّ مغازلتها؟».

«مرتاً طبعاً. لا أستطيع مساعدتك أكثر. لقد أخبرتك عن رغبتها...
البقية عليك. هي مستلقية على ظهرها في الفراش ولا تستطيع حراكاً.
رجلها مكسورة. أما أنت فتستطيع... توقفت فجأة بعد أن شعرت أنه
يراقبها وفي عينيه ضحكة واضحة».

«اكلمي، زيديني علماً وثقافة. أخبريني ما الذي عليّ القيام به؟».
«تستطيع مثلاً أن تزورها».

«لكنك قلت أنها ستعود إلى المنزل في نهاية الأسبوع. سأراها حينئذ».
«صحيح. ولكن ألا ترغب في الزواج منها؟».

«أنا لا أذكر أنني قلت سأزوج منها أو من غيرها».
«لقد قلت لي منذ أيام أنك ربما وجدت زهرة لتبقى معك. كذلك قالت
نان أنك ستزوج قريباً لأنها لا تتصور أنك ستعيش هنا لوحدها بدون امرأة
ترافقك درب حياتك...».

«وأنت جمعت كالعادة حساباتك! لاحظت أنه تضايق كثيراً لأن خططه
للمستقبل قد بحثتها مع نان. وأكمل بغضب شديد «أعتقد أن مرتا تدبر

خطة تؤمن بها لابنها ابا ولها مركزاً اجتماعياً من زواج ثان. وانت تفترضين ان اكون انا الزوج المرتقب. ثم اعداد الكتاب الى المجموعة. طوى ذراعيه على صدره ونظر اليها. كانت تعابير وجهه تتحداها. نظرت اليه ساندي مستسلمة وعرفت ان رأيه بمرتا لم يتغير. هي بنظره غنيمة، مأكرة ووصولية.

«لماذا اذن اهديتها الورد الاحمر؟»

«لا ينقصني التهذيب. هل من اللياقة الاجتماعية ان أزور مريضة في المستشفى ولا اقدم لها بعض الزهور. لو كانت نان أو حتى السيدة برودي لفعلت الشيء نفسه». ثم اكمل يسألها «اعتقد ان مرثا لم تأخذ الورد الاحمر على غير محمله؟»

«اعتقد... اعتقد انها فعلت ذلك». اجابته بهدوء «بعد ان نزلت من المستشفى قالت لي انك تغيرت في معاملتها، اصبحت لطيفاً... ظننتك كروفورد تجلس قربها تحادثها». اصبحت تعابير وجهه متسلطة. «ذكرت لمرثا انني اخبرتك عن رغبتها في الزواج». انخفض صوتها الى صمت «لا بد وانك تعتقد الآن انني غبية؟»

«ليس ذلك فقط بل انك لا تحيدين جمع اثنين مع اثنين ايضاً. لماذا لا تكفين عن جمع المعلومات؟ كفي عن دفعنا الى ادوار لا نرغب بتمثيلها؟ انا اعتقد ان الزواج امر جدي للغاية. زوجة مثل مرثا ستكونني امراً باهظة وانا ادقق في مصروفي لاوازن ميزانيتي. انها تحب ان تغمر بالهدايا. ترغب في تجديد اثاث المنزل دفعة واحدة ليصبح عصرياً. وانا لست مستعداً لأنكبد مصاريف زوجة مثلها».

«الزواج يتطلب اكثر من... مصاريف». انفجرت ساخطة «هناك الحب والعشرة مع شخص يعجبك».

«بالطبع». أجابها ليماندا وهو يضحك، «يمكنني الحصول على الحب والعشرة بدون رباط زوجي. او انك لا تعرفين ذلك؟»

«لم اعرف في حياتي رجلاً مشاكساً مثلك». تضايقت منه كثيراً. امسكت كتاباً لتضربه به. مالت السلم تحتها. تآرجحت في الهواء. اسرع ليماندا وأمسك بها قبل ان تسقط الى الارض. ثقل جسمها المتهازل قلب كيانه. اختل توازنه ووقع ارضاً.

حاولت الافلات من قبضته لكن ذراعيه اطبقنا عليها بشدة. جذبها اليه ليوشوشها في أذنها قائلاً:

«انقاذ رقم خمسة يا جميلتي الساحرة. هذه المرة كان الخطر أقل. والانقاذ مثير. الا استحق مكافأة لانني جعلت من نفسي وسادة لك».

افكاره الجديدة جعلت رأيه واضحاً فيها. الحب والعيش بدون رباط زوجي يعني انه يستغلها.

«دعني اذهب».

«ليس الآن. لم تسنح لي فرصة مؤاتية لأجعل منك امرأة». «ولا فرصة لك الآن ايضاً؟» اجابته بغضب وهي تحاول افلات يديه عن خصرها. ثم اكملت «لا أرغب في عنائك».

«اعتقد انك تريدني» قال ذلك وبسرعة أفلت يديه عن خصرها وأمسك بوجهها. نظرت اليه شبه مسحورة بينما كان يعانقها.

سمعت ساندي صوتاً بالباب، وكذلك سمع ليماندا. تركها ونظر الى الباب. وكذلك نظرت هي.

دفع الباب ببطء ظهرت خلفه سيدة طويلة أنيقة ترتدي قبعة زرقاء فوق محطف ازرق المطر. كانت هيلين لندسي بالباب. تجمدت عيناها الزرقاوان وهي تحقق فيها، يجلسان على الارض ملتصقين.

الطقس ماطر».

«ليماندا» نادته وهي تتبعه... سمعت ساندي وقع اقدامها مبتعدين. اكملت عملية جمع الكتب من على الأرض. عليها ايجاد سلم امتن قبل ان تكمل عملية التنظيف. خرجت لتفقد ديرميد لأن وقت قيلولته شارف على الانتهاء. لم تر هيلين ولا ليماندا. كان وجهها دافئاً. تذكرت تصرفها مع ليماندا حين حاول عناقها...

سر ديرميد حين اخبرته بأنه مدعو ليلعب مع لورنا واويان. نزلا حيث كانت هيلين تنتظرهما. كانت خارجة من المطبخ لتوها.

«اردت ان اتكلم مع نان. انها ليست بالمطبخ. هل تعرفين اين هي؟».

«الم يخبرك ليماندا؟ لقد ذهبت الى سكاربورو لبضعة اسابيع».

«من يقوم باعمال المنزل اثناء غيابها؟».

«السيدة برودي تأتي كل صباح».

«وبعد الظهر؟».

«فقط انا».

«انت لوحده مع ليماندا؟».

«معنا ديرميد وجوني».

«هذا عمل طائش يا عزيزتي».

«لا بديل لدي. مرتا ترغب ان ابقى مع ديرميد هنا فترة بقائها في

المستشفى وقد وافق ليماندا».

«فهمت. لكن اياك ان تصممي على البقاء هنا الى الأبد». ثم التفتت

الى ديرميد

«اهلا يا صغيري. هل تأتي معي لتلعب مع لورنا واويان؟ لديهما ألعاب

عديدة، ونشرب الشاي برفقتها. ما رأيك؟».

«اذهب معك فقط اذا حضرت ساندي برفقتي؟».

ثم امسك بيد ساندي متعلقاً بها.

«فكرة جيدة. هل ترغبين في الحضور؟ سألت هيلين ساندي اخيراً.

والدتي تستقبل اليوم بعض السيدات لتناول الشاي. يمكنك الانضمام

اليهن. انه تغيير وافضل من مسح الغبار عن الكتب القديمة والوقوع من

على السلم». كانت هيلين تشير الى انها لا تصدق القصة التي شرحها

٦ - سأكون لك!

استغربت هيلين وضعهما:

«ماذا تفعلان؟»

«نمسح الغبار عن الكتب وننظفها». اجابها ببرود. نهض واقفاً وساعد ساندي على الوقوف واكمل «كانت ساندي تقف على السلم. مالت بها وسقطت». اصلح وضع السلم المقلوبة واسندها قرب الحائط قرب رفوف الكتب.

«اهكذا؟» رفعت هيلين حاجبيها مستغربة. شرعت ساندي تحمل الكتب وترفعها عن الارض في محاولة لاختفاء حمرة الخجل عن وجهها. اكملت هيلين: «قرعت الباب. ولما لم اسمع جواباً. دخلت. ربما كنتما مشغولين فلم تسمعا...».

وقف ليماندا يتسل بالنظر اليها ولم يظهر عليه اثر لقلق او اضطراب. قال:

«ما سبب زيارتك الكريمة اليوم؟» سألتها بسخرية «لا تقولي ان حادثاً اخر قد حصل!»

«لا. لا والحمدلله. مرتا تتحسن بسرعة. اليوم صباحاً بدأت تستعمل العكازين. فقط حضرت من اجل ديرميد. اود ان آخذه معي ليلعب مع لورنا واويان بما ان الطقس ماطر ولا مجال للعب على الشاطئ». هذا، اذا وافقت يا ليماندا...».

«ذهاب ديرميد يتعلق بمربيته. رتبتي الأمر معها. اعذريني، حان الوقت لاعود لعملي. نيني مستودعاً جديداً. نحاول اتمامه من الداخل، بما ان

«عليّ ان اسأل جوني اذا كان بإمكانه ان يجمع البيض عني».

«اسرعي، اسأله ثم غيري بنظرونك والبسي ثوباً او تنورة لأن جدتي ستكون في بروكفيلد وهي متحفظة وتحب الشكليات. انها تصر على ان تحضر النساء لتناول الشاي بأثواب او تنانير وتحب مرثاً لأنها على حسب تعبيرها «سيدة»، ولا احب ان تخذليها».

اسرعت ساندي تفتش عن جوني. رضي ان يقوم عنها بمهمة تجميع البيض. غيرت ملابسها. لبست بلوزة كاثانية خضراء اللون، اكمامها طويلة، وقبتها مفتوحة، مع تنورة واسعة خضراء اللون. مشطت شعرها بسرعة. قالت في نفسها: كم هي مقرقة، هيلين، ماذا تعني ان بقائي لوحدي مع ليماند ليس عملاً حكيماً. ثم كيف تطلب مني عدم التفكير بالبقاء هنا لوقت طويل. لا بد انها تشك في تصرفاتي، بل انني متأكدة انها تسيء الظن بي... ان الوضع الذي رأيته فيه لا يترك مجالاً للشك. ثم هناك شهرة آل كالدويل في هذا الميدان بالذات تعزز الظن بي... يحق لهيلين ان تعتقد ان علاقة غير شريفة تربط بين ليماند والمربية...

هذا ظلم. فقط لأنها فتاة عازبة تعيش لوحدها في منزل ليماند كالدويل ستعرض لأن يلوك الناس سمعتها وتلاحقها الاشاعات والأقاويل. رمت الفرشاة من يدها. حملت حقيبتها ومشّت الى خارج الغرفة.

ركبت مع ديرميد في سيارة هيلين الجديدة في طريقهما الى بروكفيلد. «اشتريتها البارحة. انها تشعرني بالاستقلال والحرية. سأدخل شريكة مع الدكتور باركر في كيركتون وسأذهب في نهاية الشهر. عندما كنت ادرس الطب كنت اتخى ان اعود لامارس المهنة هنا في منطقتي حيث جذور عائلتي. واخيراً تحقق حلمي هل زرت بروكفيلد من قبل؟».

«لا. لكن مرثاً اخبرتني انه منزل فخم».

«هو كذلك. جدي بناء ليتقاعد فيه. كنا نعود اليه في العطل من غلاسكو. وكان جدي شريكاً في مصلحة نقلات ناجحة وقد ورث والدي حصته في الشركة. بعد وفاة والدي تولت والدتي مركزه في الشركة وبرهنت عن تصميم وعقل راجح في امور العمل».

كان المنزل مزوداً بأفضل الرياض والاثاث ويحتوي على جميع الادوات

العصرية التي من شأنها ان تجعل السكن مريحاً وسهلاً. كان المنزل نظيفاً ومرتباً للغاية مما يدل على وجود خدمة يومية وصيانة فعلية ولكن ساندي لم تشعر الدفء والحنان وروح اللفة والمحبة التي احستها في منزل دانكريغان.

آدا لندسي، والدة هيلين وارملة ستورات، تشبه هيلين ببرودتها ونضارتها. شعرها الرمادي مصفف بتموجات بسيطة وعيناها الزرقاوان فيهما جمود. تلبس تنورة مكسرة وفوقها بلوزة وكنزة من اللون نفسه، بسيطة في اناقته.

«انت لا تشبهين مرثاً ابداً. اجليبي الصغير الى القاعة ليلتقي حماتي ثم يذهب ليلعب مع لورنا وايوان في غرفة اللعب».

غريس لندسي الجدة، على عكس كنتها آدا، تتميز بروح النكتة. النمش يكسو وجهها مثل حفيدها بيل. عيناها الرماديتان فيهما مكر وذكاء. ربنت غريس على شعر ديرميد الأسود وقالت وهي تتفحصه:

«لم اعتقد ابداً انني سأعيش لأرى حفيد فيليدا كالدويل مرحباً به في منزلي. هو يشبهها اليس كذلك يا آدا؟».

«اظن انه يشبهها. لم ادق في تقاطيعه بعد. تعال معي يا ديرميد الى غرفة الأولاد». قالت آدا. امسك ديرميد بيد ساندي كأنه شعر ان آدا ليست صديقة.

اصر ديرميد:

«تعالي معي يا ساندي».

«سأتي». قالت ساندي لأدا «اظنه يشعر انه غريب هنا. سيتحسن عندما يصبح في غرفة اللعب مع لورنا وايوان».

«حسناً ولكن ارجوان لا يتعلق بك كثيراً. سيأتي اليوم الذي تعودين فيه الى بلدك، اليس كذلك؟ لا أؤمن ان يترك الولد على هواه، ليستطيع تحمل الم الفراق وخيبات الأمل أكثر عندما يكبر».

كانت ساندي تود ان تبدي رأيها في هذه المسألة التربوية ولكنها فضلت ان تصمت. دخلت معه غرفة اللعب. رحب لورنا وايوان اشد الترحيب بديرميد. نسي لفوره تحفظه وانخرط يلعب معها. كانت الأنسة دوبي، المربية، معهم في الغرفة. تكلمت ساندي معها قليلاً ثم عادت الى غرفة

الاستقبال بعد ان اطمأنت الى ان ديرميد يلهو مع لورنا واويوان.
حضرت بعض النسوة للشاي. جلسن يثرثرن. عرفتها هيلين اليهن.
جلست ساندي قرب امرأة متوسطة العمر. قالت:
«التفتك ابنتي في فندق كريغان. كنت مع رون كارسون. اخبرني انك
ضيفة في منزل دانكريغان لرعاية ابن كروفورد الصغير». احست ساندي ان كل العيون اجتمعت عليها.
«هذا صحيح».

«كيف تمضين وقتك هناك؟ اخبروني ان المنزل بال قليلًا والجميع يقول
ان نان كوري لا تحسن تدبير المنزل». قالت احدى النساء الجالسات قريبا.
قالت ساندي:

«احب العيش هناك. المنزل له ميزات وسحر عجيب».
«ربما وصفك هذا ينطبق على مالكة الحالي. اليس كذلك؟» قالت امرأة
اخرى. وضحك الجميع على تعليقها.

احمر وجه هيلين ونظرت الى ساندي لترى ردة الفعل لديها.
«كيف هي نان في هذه الأيام؟ لقد تغييت عن اجتماع المجلس الريفي
الآخر بسبب المرض».

سألت امرأة في الطرف الآخر من القاعة.
«انها مسافرة، في سكاربورو. اليس كذلك يا ساندي؟» اجابت هيلين
بالنيابة عنها. تنبه الجميع الى الموضوع الدسم المطروح ورغب في المزيد من
الثروة حوله. نظر الجميع الى ساندي، بعضهن بتعجب والبعض الآخر
بمكر وخبث. كانت نظرات آدا وما فيها من جمود اكثر ما ازعجها.

للفور اتت غريس لمساعدتها، غيرت موضوع الحديث بلباقة وانقذتها
من السنة النساء الثرائيات وقفل موضوع منزل دانكريغان ومالكه.
لم تشعر ساندي براحة وهي وسط هؤلاء النسوة. اغتنمت فرصة وقوف
بعض النسوة للرحيل. ودخلت غرفة اللعب. كان بيل قد وصل لتوه وبدأ
يمرح مع الأولاد بصخب. طلبت اليه السماح لها ولديرميد بالرحيل. قال:
«اتركي هيلين مع الزوار. سأخذك بنفسك وسيذهب الأولاد برفقتي في
نزهة صغيرة».

ودعت آدا ساندي على المدخل قائلة:

«عودي مرة ثانية. لم نتحدث بما فيه الكفاية. عودي لزيارتنا متى
تشائين. بقاؤك موحش لوحذك في غياب ابنة خالك في المستشفى». ثم
التفتت الى بيل وقالت: «ما رأيك لو نهنم بديرميد في غياب مرتا. ثم حين
تخرج مرتا من المستشفى تمضي فترة النقاهة هنا. تستطيع انت رعاية
مريضتك وتعود ساندي الى انكلترا».

«هل ترغين في العودة الى بيتك؟» سأله بيل وهو ينظر اليها نظرة مأكرة.

«ليس هناك ضرورة قصوى لذلك. مرتا تعرف انني سأبقى هنا قدر ما
ترغب».

تعجبت ساندي لماذا تصر آدا على رحيلها وقالت:

«اعرف ذلك. لكنني لا اريدك ان تبقي لوحذك في منزل دانكريغان في
غياب نان. اظن انه لم يخطر ببالك ان الناس هنا رجعيون ومحافظون. كل
شيء مخالف للعرف يثير الاشاعات. سأتركك... فكري بما قلته لك.
مع السلامة».

وبعد ان ركبت ساندي سيارة بيل سألته بعصبية ظاهرة:
«هل يمكنك ان تخبرني لماذا امك وبقيّة النساء بالهن مشغول لأنني اسكن
لوحدي في منزل دانكريغان؟».

«ما سمعته مؤخراً من والدتي، هي لا تحب بقاءك مع ليماوند، محافظة
على سمعتك واخلاقك».

«كنت اعرف ان هذا هو السبب. هذا ليس من العدل بشيء» نظر اليها
بطرف عيني. قال بيل بصوت جاف:

«نساء ورجال آل كالدويل معروفون بعلاقاتهم غير الشرعية مع الجنس
الأخر».

«تقصد فيليدا كالدويل التي ذهبت في رحلة بحرية مع والدك. لم يتقدم
احد غيرها لمصاحبتة في تلك الرحلة المشؤومة. لسوء حظها غرقت
معه... ثم نان كوري عاشت سنين مع كافن تدبير منزله».

«تماماً. انت ذكرت الحقائق كما وردت ولم تنظري الى ابعادها
وخلفياتها. العديد من الناس ينظرون ما وراء الحقائق ويفضلون ما يثير
لعايهم اكثر لينهشوا بالسستهم، واذا لم يجدوا ما يثير، يفترحونه. ويسرعة
تنتشر الاشاعات وتدور، والكل يقبل بها كحقيقة راهنة مسلم بها».

الاشاعات حطمت سمعة ابي وكذلك سمعة فيليدا كالدويل... لقد
اهملت قصة ليماندا والتي لم تكن تركز على ذرة من الحقيقة.
«كل ما اعرفه ان اللوم وقع عليه لشيء فعله شقيقه كروفورد». قالت
ساندي.

«اذن. سمعت هذه الاشاعة ايضاً. يستطيع ليماندا الآن ان يصحح
نظرة الناس اليه ويبيض صفحته». «هل يمكنك ان تخبرني القصة؟» سألته وهي واثقة انها تقتنص معلومات
قد منعت عنها.

«احد التوأمين كان على علاقة غرامية مع سيدة متزوجة. المجتمع مغلق
والكل يلاحظ اي شيء من هذا القبيل كما ان المرأة كانت من النوع الذي
يتباهى بغرامياته. وزلق لسانها يوماً وذكرت اسم ليماندا. ودارت الاشاعة
وأصبحت حديث المنطقة كلها».

قالت ساندي: «لقد استعمل كروفورد اسم اخيه، يوم كان يلقيها».
«هي ليست الوحيدة التي خدعها بهذه اللعبة. حتى اختي هيلين لم
تسلم من حيلتها تلك».

«كان على ليماندا ان يذكر الحقيقة».
«اعرف. لكنه لم يفعل لأن احداً لم يطلب منه ذلك. لقد وصمه الناس
بهذا العمل الأسود بعد ان غادر المنطقة الى كندا. اعتقد الجميع انه غادر
بسبب تلك الاشاعة. الحقيقة انه غادر المنطقة بعد مشادات عاصفة مع
والده. واتهمه الناس بالجرم غيائياً».

«اخبرني نان ان سبب المشادة مع والده كانت بسبب ادارة مزرعة
دانكريغان».

«انها على حق. كان ليماندا يحب الزراعة واعمال المزرعة. قال لي مرة
انه يزعمه ان يرى المزرعة تسوء وتبلى من سوء ادارتها. وهو على حق في
ذلك. ويعرف بأنه سيرونها يوماً ما. كان توقيت المشادة خطأ. الجميع اعتقد
ان والده سمع بعلاقة ابنه الغرامية مع مي برجيز فطرده من المنزل».

«وكيف عرفت انت ان كروفورد وليس ليماندا هو الذي كان على علاقة
مع مي برجيز؟»

«عرفت بها بطريق الصدفة، قبل سنين قليلة. كنت في نزهة بحرية.
نزلت قرية صغيرة لأشرب قليلاً. كان كروفورد هناك. تكلمت معه. كنت
على وشك الخروج حين دخلت مي برجيز مع بعض اصحابها. لم نرها منذ
انتقلت، بعد افتتاح امرها، مع زوجها من المنطقة، منذ سنين عديدة.
رأت كروفورد واقتربت منه تحدثه. سألته ماذا فعل منذ مغامرتهما
الصغيرة... رأيت انه لم يفاجأ او يتلبك او يداري. ولما تركته، سألته:
انت صاحب العلاقة غير المشروعة وليس ليماندا؟ نظر الي ثم قال وهو
يضحك. لقد سلمت نفسي. ماذا ستفعل بهذه الخبيرة؟ هل ستخبر هيلين
بها؟».

«لماذا سألك ذلك؟»
قال بل: «في تلك الاثناء كان زواجه من هيلين محتمل. كانت هيلين
صديقة للتوأمين. اصدقاء طفولة. ولما لم اجب عن سؤاله قال لي:
اخبرها: انا لا اهتم بهذا الأمر. لقد مر الزمان على هذه الحادثة وقد نسيها
الناس. حتى لو اعلنت ما عرفته الآن لن يصدقك احد... قال ذلك
وغادر المقهى».

«هل اخبرت هيلين؟»
«لا. اخبرت والدي. ويا ليتني لم افعل. انت كالسهم الى دانكريغان
وقابلت كافن واطلعت على الحقيقة واخبرته رأياها بكروفورد كمرشح لزوج
ابنتها... كافن رجل كبير وغريب الاطوار وقد نالت هذه القصة من
كبريائه وخصوصاً من حبه الكبير لكروفورد. ساءه ان ابنه المفضل ترك
شقيقه يلام على ما فعله هو. وحدثت بعد ذلك مشادة اخرى طرد على اثرها
الابن الثاني واقسم والده انه لن يسمح له بالعودة ولقد نفذ قسمه...
انزعجت هيلين كثيراً لغياب ليماندا ورحلت بدورها الى اميركا الجنوبية.
انهى بيل القصة وكان قد وصل بسيارته الى المنزل حيث وقف ينتظر نزول
ساندي وديرميد».

قالت ساندي:
«شكراً على هذه المعلومات التي ذكرتها لي. علي ان ادخل».

قال بيل: «مع السلامة. كنت دائماً اقول ان كروفورد وليس ليماندا هو
الذي كان على علاقة غير مشروعة مع مي... الآن بعد عودة ليماندا

واجتهاده الثمر في دانكريغان، اظن اننا يجب ان نمنحه الفرصة ليعيش مرفوع الرأس. الاشاعات السابقة حول ماضي آل كالدويل كانت هدامة، ولم يستمعوا الى ما كان يقال عنهم.

«نعم. اعرف ذلك. ما يزال ليماندا يحمي اخاه ولا يرغب ان يعرف الحقيقة احد».

«كان ليماندا حسن السيرة دائماً. يساعد كروفورد في حل مشاكله. كان الأقوى بينها. وطلبت فيليدا منه ان يرعى اخاه وقد اصبح ذلك عادة لديه. اما بشأن ما قالته والدتي، انها لا تقصد الا الخير. انها لا تحب ان يلوك الناس سيرتك ولا سيرة مرتا. ثم لا ترغب ان يسيء احد من آل كالدويل الى هيلين مرة ثانية».

«وهل يستطيع ليماندا ان يسيء الى هيلين».

«لقد اساء اليها مرة يوم تركها وسافر الى كندا. حولت حيثنذ عواطفها كلها الى كروفورد ولكنه تركها ورحل ايضاً. اليوم عاد ليماندا وهي تتمنى ان تعود المياه الى مجاريها بينها وذلك يكون اسهل بدون اشاعات جديدة وثرثرة واقاويل عنه».

«اذا بقيت هنا ستثار الاشاعات؟».

«نعم. افضل حل هو ان تخبري ليماندا بعزمك على الرحيل وهو يتصرف».

دخلت ساندي المنزل. لم يكن جوني ولا ليماندا هناك. هممت ديرميد ووضعت في فراشه ثم نزلت الى المطبخ. كان قد وصل لتوه جوني ومعه رون كارسون الذي قال لساندي:

«جلبت لك الصور الفوتوغرافية. ستعجبك وستجدينها مثيرة».

كانت ثلاث صور اخذت للمنطقة من الطائرة. الصور مكبرة وواضحة جداً. تفحصتها ساندي بعين خبيرة وتأكد لديها بما لا يقبل الشك أثر مدينة سلتية في التلة خلف المنزل. ظهر لها واضحاً اثار مدورة تلف قاعدة الحصن بما يشبه الخندق. شرحت ساندي رأيها بحماس الى رون وجوني. قال رون:

«تستغرق الحفريات هناك اسابيع من العمل الشاق ولا يمكنك القيام بها لوحدك بل تحتاجين لمساعدة تقنية».

«انا لا استطيع الحفر بمفردي. احتاج لفريق من الخبراء في التنقيب. فقط استطيع الآن ان اتعرف الى الموقع واحده. ربما ابدأ الحفر في سطح الأرض فقط حيث لا توجد مزروعات. وربما اجد شيئاً. شكراً يارون على الصور».

سأل رون: «هل من الممكن ان يبقى ديرميد في رعاية ليماندا وتذهيب معنا الى الرقص هذا المساء؟».

«لا امل البتة. لن يفعل».

«هل ذهب لزيارة زوجة اخيه في المستشفى. لو تستطيعين سماع الاشاعات بين الناس. الجميع يتساءل عمن ستكون السيدة الجديدة في منزل دانكريغان، مرتا ام هيلين؟ هل تعرفين من؟».

«لا. لو يكف الناس عن ثرثرتهم».

«كأنك تطلين من الأرض ان تكف عن الدوران». ثم اكمل «سمعت ايضاً ان هناك مجهولة مرشحة لأن تكون السيدة الجديدة للمنزل، فتاة صغيرة لا خبرة لها...» قال رون وهو يضحك ويغمز بعينه.

«جوني، ارجوك اخرجه من هنا قبل ان اضربه». ضحكت ساندي. «سأرحل. آسف لانك لا تستطيعين مرافقتنا الليلة. ربما نأخذ الصغير معنا في نزهة بحرية غداً نبدأ مع المد ونذهب الى وستبور نسيح هناك ونعود مع الجزر؟».

«لا بأس اذا كان الطقس مناسباً لهذه النزهة البحرية».

اعادت ساندي النظر في الصور مرة ثانية. الحفريات التنقيبية، ان تمت ستبرهن ان كافن كان على حق في نظريته بأن دانكريغان كانت مركزاً حضارياً قبل ان يحضر السيرغاي ويضم اليه هذه الأراضي. زاد حماسها. تمت لو كان كافن حياً ليرى صحة نظرياته. قررت ان تكتب الى ديريك سلون وتخبره عن اكتشافاتها بهذا الصدد. كانت رسالة طويلة شرحت له بالتفصيل اكتشافاتها واستنتاجاتها وشاركته بقصة دانكريغان التاريخية.

تركز املها كله في الحفريات عليها تجد بعض البقايا الفخارية او دبوساً اخر للزينة. ثم عليها زيارة قبو الحصن والسجن فيه، وان تمشي النفق الذي يوصل الحصن بالشاطئ والذي استعمله المهربون، وعليها ترتيب المكتبة...

انتهت من كتابة الرسالة ثم عادت الى غرفتها تطالع المخطوطات عن تاريخ دانكريغان. وصلت الى الحروب بين انكلترا واسكوتلندا زمن روبرت بروس.

فارساً في دانكريغان حليفاً للملك اسكتلندا الذي كافاه بالأراضي والمزيد من السلطة. قصة غرامية جانبية تقول ان فارس دانكريغان احب ابنة احد السجناء الانكليز لديه... وقد انتهت القصة الغرامية نهاية سعيدة بالزواج.

مرة ثانية رأت حلمها يتكرر - الفارس الأسود نفسه ينقذها من الاخطار. هذه المرة كانت تركض على الرمال قرب المصب ترغب في العودة الى انكلترا. بدأت تغرق في المصب. وصلت المياه الى اكتافها وكادت تغمرها. حضر فجأة الفارس الأسود وامسكها من شعرها وخلصها. قامت من نومها مذعورة. كانت مبللة بالعرق. فتحت نافذتها فاذا الشمس الوردية تملأ السماء بنورها.

نزلت مع ديرميد الى المطبخ من اجل الفطور. كان ليماندا ما يزال يجلس على كرسيه، منطوياً على نفسه في تفكير عميق. حين رآته تذكرت حلم الليلة الماضية. تعجبت: لماذا تحلم به دائماً؟ زادت ضربات قلبها. رغبت ان تترك المطبخ وتهرب منه. ولكن لماذا تتصرف على هذا النحو. ان تصرفاتها تشبه تصرفات مراهقة في اول معرفتها بأحاسيس الحب... حاولت ان تتصرف بانزان. ثرثرت معه عن اكتشافاتها بعد ان رأت الصور الفوتوغرافية التي جلبها رون. قالت له انها جازمة الآن بوجود ركام خلف التلة في دانكريغان. استمع اليها يراقب حماسها وتعابير وجهها. كان نظره جامداً خالياً من اي تعبير.

«ماذا ستفعلين؟ هل ستحفرين؟»

«لا اعتقد انني استطيع ذلك لوحدي. احتاج لخبراء في التنقيب والمصاريف كبيرة. احتاج لفريق عمل يساعدني. يمكنني الآن ان احدد موقع الحفريات. اظن ان جمعية التنقيب عن الاثار المحلية تحضر وتطلب السماح لها بمسح المنطقة من اجل التنقيب فيها...»

«لا. لا اريد غرباء هنا يحفرون. سيتلفون المزروعات. ثم انت تعرفين رأيي في ان ادفن الماضي ولا انبش فيه». قال ذلك بعصية ظاهرة. كأنه لم

يشم الليل بطوله من كثرة التفكير.

«حسناً». قالت ساندي. ما الذي يمكنها ان تفعل فالأرض ارضه وهو حر التصرف. كانت خيبة املها كبيرة.

«لن تحضر السيدة برودي لا اليوم ولا غداً. علينا ان نذهب الى كيركتون لنشتري مؤناتنا للأسبوع المقبل ثم نتغدى سوياً في الفندق ونزوري مرتاً بعد ذلك». قال ذلك بسرعة.

«لن تزورها انت؟» ضحك لأنه تذكر توصياتها له في اليوم السابق وقال:

«ربما. اخبريني كيف كانت زيارتك الى بروكفيلد البارحة؟ هل استمتعت بوقتك وتعلمت الكثير عن تاريخ عائلة كالدويل الحديث وخصوصتهم مع آل لندسي. لا بد ان هيلين واذا لديهم الكثير لعلامك». نظرت اليه. رأت الفرصة مؤاتية لتخبره عن اقتراح آدا بشأن بقاء ديرميد عندهم واسباب الاقتراح. كانت واثقة من ان القصة ستثير غضبه. كان صوتها منخفضاً حين بدأت:

«بالحقيقة، ان بيل هو الذي اخبرني القصة عندما كان يوصلني مع ديرميد بسيارته الى المنزل. اتهمها مجدداً:

«وهل تصيدت المزيد من الاخبار؟»

«كلا. ليس عن قصد. اخبرني عن غراميات مي برجيتز وكيف عرف هو ان كروفورد هو الذي تورط معها وليس انت. وكيف ادى ذلك الى الشجار بين كروفورد ووالدك حيث طرده من المنزل».

«انها اخبار قديمة ولا اجد نفعاً في تحريكها من جديد؟ على بيل ان يغلق فمه. لماذا اخبرك هذه القصة؟»

«رغب في توضيح شيء قالته لي والدته قبل مغادرتي منزلها... كم هو بشع. لقد اكتشفت انني اصبحت موضوعاً دسماً لثرثرة نساء البلدة».

«وما انك تعيشين في دانكريغان، حتماً ستصبحين موضوعاً لأقاويلهم. اخبريني ماذا قيل عنك؟»

«البارحة كان عند السيدة لندسي سيدات لتناول الشاي. شعرت من احاديثهن ان وجودي في دانكريغان في غياب نان ومرتا يجعلني هدفاً

لأشاعتهم، كما وإن هيلين ووالدتها اكدتا لي ان علي مغادرة البلد اذا كنت ارغب ان لا يتكلم الناس عني».

«فهمت الآن سبب قصة بيل. انه يؤكد لك ان اسم كالدويل موصوم بالسواد وكل من يرتبط بنا سيصاب من سوادنا».

«قال بيل ايضاً انه لحسن حظك انك كنت خارج المنطقة يوم وقعت التهمة عليك».

قالت ساندي ذلك ثم نظرت اليه فاذا هو كبيركان من الغضب على وشك الانفجار.

قال: «ما علاقة آل لندسي بالموضوع. ما مهمهم ان كانت نان هنا ام لا؟ ليس من شأنهم ان يراقبوا ما يحصل في منزلي ومن ادعوا للبقاء عندي. الآن بدأت افهم ما كان يدور في خلد هيلين البارحة. رأينا نعانق بعضنا ليلاً يوم الحادث ثم رأينا البارحة على الأرض في وضع غير عادي ولأننا وحدنا في المنزل، استنتجت فوراً اننا نعيش قصة غرام ملتهب». قال بحزم كأنه يتلو نشرة الاخبار.

«شيء من هذا القبيل».

كبرياء كالدويل وغضبه عادة تختفي وراء برودته وعدم اكرانه. اما اليوم فكان ليماندا لا يخفي شيئاً من طباعه.

«يا للنساء الثرائيات. لا عمل عندهن سوى تمزيق وتقطيع سمعة فلان او فلاتة. اسف لما يحصل لك يا ساندي بسببي. اخبريني ما هو اقتراح آدا؟ اعتقد ان لديها خطة لتخلص منك بسرعة». كان يتكلم بشكل يكشف عن كرهه الشديد لآدا لندسي.

«اقترحت ان يبقى ديرميد عندهم لحين خروج مرتا من المستشفى. ترعاه السيدة دوبي مع ولديها. اعود انا الى انكلترا وعندما تخرج مرتا من المستشفى تمضي فترة النقاهة عندهم حيث يرعاها بيل كونها مريضة، وحتى لا تبقى ايضاً لوحدها معك في المنزل». اكملت ساندي تحول ليماندا الى برج من الغضب. جميع عضلات وجهه برزت. ربما كان والده في حالة غضب مشابهة يوم طرد ولديه من المنزل... وحين عاود الكلام معها كان قد استجمع هدوءه من جديد.

«انها شهامة من آدا. اليس كذلك؟ كيف كان وقع الاقتراح على

بيل؟».

«طلب الي ان انقله لك. يعتقد انك ستفعل شيئاً لوقف الاشاعات والاقاويل».

«هو قال ذلك؟ وانت، هل ترغيبين في العودة الى انكلترا وتحافظين على اخلاقك وفضايلك من الشيطان. يعتقد الجميع هنا ان ليماندا كالدويل شيطان اسود معتدي».

ضحكت ساندي من وصفه لنفسه وتأكدت انه فهم الوضع كله. وقالت:

«انني افهم الماضي واهتم به ولكنني اعيش في النصف الثاني من القرن العشرين. انا لا اعتقد انك ستعتدي على فضائلي... ولكن اذا كان رحيلي يساعد في عدم تلطيخ اسمك بالمزيد من السواد فسأرحل. ثم هناك رأي مرتا في هذا الموضوع. لقد وعدتها العناية بابنها فترة بقائها في المستشفى ولن اتركها قبل ان تجد بديلاً عني».

«سأزور مرتا بعد الظهر. حان الوقت لاتكلم واياها بصدق. كنا نحور وندور حول الموضوع. كوني جاهزة في العاشرة لنذهب الى كيركتون». لم ينتظر منها جواباً على اوامره. بدأت تنظف الطاولة. تساءلت ساندي في نفسها: اخيراً تحرك ليماندا من اجل مستقبل الصغير. هل اقتراح آدا ليعيش مع آل لندسي هو السبب؟ هل سيطلب من مرتا ان تتزوجه؟ تذكرت ما قاله عن مرتا في المكتبة واستبعدت هذا الامر. واذا اصر على طلب الزواج منها بالرغم مما قاله عنها عندئذ سيغضب هيلين...

المدينة مليئة بالسواح والمزارعين للتسويق. ذهبت واياه الى السوبر ماركت حيث ملأ العربء بانواع عديدة من الاطعمة والمعلبات. كان يعرف تماماً ما يريد. ويستفيد من التنزيلات المعلقة هنا وهناك على بعض الاصناف. انهى مشترياته بسرعة كبيرة ووضعها في صندوق سيارته واكمل طريقه معها ومع ديرميد الى الفندق. كان يسلم على اصحابه ومعارفه ولم يعرفها اليهم. كانت تراقب معارفه ينظرون اليها بظرف اعينهم. ربما هو على حق بذلك... انه يخفف الاقاويل حولها. غرفة الطعام في الفندق كانت مليئة، تقريباً. مروا بسيدة عجوز بادرتهم قائلة:

«انت ارملة كروفورد وهذا هو ابنك الصغير».

صحح ليماندا لها معلوما وقال :

«هي ابنة عمّة زوجة اخي». ثم عرفها الى السيدة واسمها السيدة غرانت.

«نعم. سمعت جوني كوري ورون كارسون يذكراها. كانا في منزلنا مع ابنتي منذ ايام. كنت ستحضرين معهما ولكنك تركت المرقص وعدت الى المنزل مع ليماندا». قالت السيدة غرانت ذلك وغادرت غرفة الطعام وتركتهم.

«من تعليقات بريئة كذلك، يقولها جوني ورون بدون قصد، تنطلق الاشاعات وتحاك الاقاويل، وبالتالي يسيء الناس الى سمعة فلان وفلانة. لقد قاست امي كثيراً من الاشاعات وبالطريقة نفسها». كان ليماندا يخاطبها بألم ومرارة وهو يقرأ لائحة الطعام.

«من المؤسف ان لا حول لنا ولا قوة في اسكاتنا». قالت ساندي. «يمكننا ان نقف في ساحة المدينة ونصرخ بصوت مرتفع ونقول: الكل يرتكب اغلاطاً. ثم نقول لهم: نحن فقط اصدقاء ولسنا عاشقين!». «وهل نحن اصدقاء؟» سألتها وقد احمرت وجنتاها خجلاً بالرغم عنها. «لقد فرضت علينا الصداقة في ظروف مثل ظروفنا. فقط أنا وأنت نعرف الحقيقة، نحن حلفاء».

تذكرت ساندي ما قالته نان عن فيليدا وستيوارت، انها لوحدتهما يعرفان حقيقة علاقتهما... وقد غرقا سوية وبموتهما ضاعت الحقيقة. ارتجفت ساندي قليلاً وهي تتذكر. كان ليماندا يراقبها عن كثب. فسألها: «ما الذي حصل؟».

«كنت افكر بفيليدا وستيوارت...» ثم تلهت بالنظر الى لائحة الطعام. مال ليماندا على الطاولة وكلمها بصوت منخفض حتى لا يسمعها احد وقال:

«يمكننا ان نفعل شيئاً مذهلاً ومتطرفاً ولكنه يضع نهاية للاشاعات والاقاويل ولو لفترة قصيرة». كان يخاطبها وعيناه تشعان بالمرء ولا اخفك ستوافقين. انت غير مستعدة لهذه الخطوة بعد».

«كيف تقرر اذا كنت اوافق او لا اوافق اذا لم تخبرني؟».

«اقول لك الحقيقة، انا لا اجرؤ. ستهمني باللؤم وستغضبين وربما

تسحين من هنا في ثورة غضب وانت تعتقدين انك قد اهنت». «نقول نحن اصدقاء. يمكنك ان تخبر صديقك بكل شيء». سألتها بعد ان لمست نظرة حنان تلفها.

«بالطبع انت صديقة. سأضع صداقتنا الجديدة. الملفقة في الاختبار. هناك طريقة وحيدة واكيدة لوضع حد للاشاعات المدمرة حول علاقتنا وهو ان نعلن خطوبتنا للجميع».

حضرت خادمة المطعم وطلب ليماندا الطعام له ولها وللصغير بدون ان يسألها. لم تجادل. كانت ما تزال تستجمع رباطة جأشها. سألتها ليماندا بعد ان ابتعدت الخادمة.

«ما رأيك؟».

«كما تقول، انها خطة متطرفة نوعاً ما».

«لكنها فعالة».

«ربما».

«اذن توافقين؟» كان خبيراً في الاقتناع.

«لا. لا اوافق. لا استطيع. انها لا تنفع الا لفترة قصيرة. كما تعلم سألني هنا اسابيع قليلة لحين تخرج مرتا من المستشفى... ثم ماذا ستقول مرتا؟».

«لا يعني ماذا تقول. لو لم تحضر الى هنا بدون دعوة... لو لم تدعك الى هنا بدون استئذان... لم يكن ليحصل ما حصل».

انه يؤلمها بكلامه الجارح. الحقيقة تؤلم. هو على حق. مرتا لم تهتم بأمره حين حضرت اليه مع ابنها وهو لن يهتم بأمرها. ثم لو لم تأت الى هنا لما تعرفت الى ليماندا ولما احست بلحظات سعيدة فادرة في ضوء القمر ولم تكن لتكتشف ابداً السعادة في ان تجد من يعاملها كامرأة بدلاً من كونها شيئاً لا جنس معين له. والأهم من كل ذلك كونها كسبت صديقاً جديداً... قالت مهمومة:

«اعتقد ان مرتا كانت غني نفسها بأن تطلبها للزواج. لو تطلب منها الزواج لتحصل ايضاً على النتائج المرجوة ذاتها».

عيناه السوداوان رمقتها بنظرة شفقة على صغر عقلها وذكاها المحدود. وقال:

«قلت لك البارحة ان حساباتك كلها خاطئة. ليماند ليس الاسم الوحيد الذي يبدأ بحرف «ل» انت على صواب في ان مرثا ترغب الزواج مرة ثانية من اجل التأمينات التي يكفلها لها الزواج. لن تتزوج هذه المرة من كالدويل. انها تطمح برفاهية وراحة واستقرار اكثر من حبيب رديء السمعة مثلي. لقد اختارت شخصاً مختلفاً هذه المرة. شعره احمر وليس اسود. سمعته العائلية نظيفة. غني يستطيع ان يتحمل مصاريف بذخها. سقفه لا يرشح واسم عائلته يبدأ بـ«ل». انه بيل لندسي»
هذه هي الصدمة الثانية لساندي هذا اليوم. استردت انقاسها بصعوبة وقالت:

«كيف عرفت، انها ترغب الزواج من بيل؟»

عيناه السوداوان تسخر منها. ترك صحن الحساء ليقول:

«انا ايضاً أستطيع ان اجمع اثنين مع اثنين وجوابي اربعة. اعرف ان بيل لن يتقدم ليطلبها للزواج قبل ان يطمئن الى انني سأتكفل مصاريف تعليم ديرميد. كنت اتهمل في قراري لنهاية الصيف. اليوم، وبعد ان بدأت السنة الاشاعات تطالك اجبرت على العجلة». توقف وكأنه يتسلى واكمل:
«ولكن كيف اتخلى عنك يا جميلتي الساحرة. علي ان اسرع لانقاذك من جديد... علي ان اسالك الموافقة على اعلان خطوبتنا».

نظرت اليه ساندي وهي مذهولة عما سمعت. نسيت صحن الحساء امامها. لم تعد تسمع الاصوات حولها في غرفة الطعام. كانت ترى فقط العينين السوداوين الباردتين لفارس دانكريغان ينظر اليها نظرة مكر وسخرية.

احس ليماند ارتباكها وهي تسمع صدى صوته وهو يكرر عليها اقتراحه بانها مخطوبان للزواج.

«لكنني لا اوافق على الخطوبة».

«حتى ولا من اجل مرثا كي تحصل على رغباتها؟»

«لا ارى كيف ستساعدنا هذه الخطوبة في الحصول على رغباتنا». «انها تمكننا من الوقت اللازم. بذلك تستطيعين البقاء لنهاية الصيف بدون اشاعات او اقاويل. انا وانت فقط نعرف حقيقة خطوبتنا». كانت تكسو وجهه نظرات المكر والدهاء. ربما هكذا كان يبدو وجهه

ايضاً يوم كان يدبر خططه مع كروفورد للمزاح.

«ماذا نفعل في نهاية الصيف؟» سألته «نعلن فسخ الخطوبة!».

«لم اصل في تفكيري الى هذا البعد. سأنتق معك الآن، اذا سمحت لي باعلان خطوبتنا اليوم، اتركك تعلنين فسخها قبل رحيلك من هنا. اليس هذا الاتفاق متكافئ». انه يمنح لمرثا الوقت الذي تريده».

اذن. هي خطوبة صورية لانهاء الاشاعات. فقط هو وهي يعرفان الحقيقة. الخطوبة واسبابها الموجبة تسمح لها البقاء في دانكريغان، ترعى ديرميد الى ان تحقق مرثا رغباتها... .

قالت ساندي:

«واوافقك. ستكون الخطوبة مفاجأة لمرثا. لا أستطيع الانتظار لأرى تأثير

النبا على وجهها حين نخبرها».

«وايضاً ستكون مفاجأة لآخرين غيرها. انني مسرور بموافقتك. نحن

الآن حلفاء».

قال ليماند ذلك ووجهه مشرق بالبشر.

آخرين من اعلى الى اسفل وهو يصرخ فرحاً. وقد وجدت عناء كبيراً
لاقناعه بأن الوقت قد حان ليذهب ويرى والدته في المستشفى.
كانت مرتا وحدها في الغرفة. وجهها الشاحب الجميل تبدو عليه آثار
الدموع.

«اهلاً» بدت مرتا خائفة القوى بعد ان ضمت ديرميد اليها.
«اين ليماند؟» سألتها ساندي وهي تأمل ان لا تكون دموعها التي
ذرفت، عائقاً يمنع ليماند من الحديث معها.

«ذهب يفتش عن هيلين حيث انها ما زالت تعمل هنا. ساندي، ليماند
يريد ان يبقى ديرميد معك في دانكريغان لحين شفائي وكذلك ديرميد
يريدك معه. انا لا ارى كيف سيكون ذلك ممكناً بعدما ذكرته هيلين عنك
وعنه... لقد تفوهت بأشياء مخجلة».

سألت ساندي:

«ماذا قالت؟»

«تقول انكما تعيشان سوية... كانت هنا في الصباح تلومني. تقول انها
غلطتي. كان علي ان لا ادعوك للحضور. وتعلق تعليقات قذرة عنك.
انزعجت كثيراً... اخبرت ليماند ما قالته عنك ولولم اخبره لانفجرت من
الغضب. ابيض وجهه وشعرت كأنه في طريقه للقيام بجريمة. خرج مسرعاً.
قال انه سيفتش عن هيلين ويضع لهذه القصة نهاية».

«هل تحدثتما في مستقبل ديرميد». سألتها ساندي بدون ان تكثر لما
قالت.

«اوه. كلا. لكنني سأفهم الآن اذا رفضت البقاء مع ديرميد في
دانكريغان، ولكن من سيعتني به ان رحلت؟».

«لن اذهب. لا ضرورة لذلك. اتفقنا انا وليماند على اعلان خطوبتنا
وهذا سيقطع دابر الاشاعات».

بدا وجه مرتا مضحكاً. عينها تجمدتا من المفاجأة. فمها انفرج قليلاً
وبرزت عيناها الى الامام. اسفت ساندي لان ليماند لم يكن في الغرفة
ليشاهد مرتا على هذا الحال من التعجب والدهشة.

«اليس بارداً. لم يذكر لي ولا كلمة عن الخطوبة ولا لمح لي بها».

«اردنا ان نخبرك النبأ سوية. رغب في أن يكلمك على انفراد بشأن

٧ - أعرف من أحب

وصلت ساندي وليماند الى المستشفى.
«اود ان اكلم مرتا على انفراد بشأن مستقبل ديرميد. احتاج لربع ساعة
فقط. خذي ديرميد الى الحديقة العامة. سنخبرها بخطوبتنا عند عودتك
مع ديرميد».

وقبل ان تجادل، اسرع ليماند يقفز السلام لوحده. بدأ ديرميد يبكي
ويصرخ:

«اريد عمي ليماند. اريد ان ارى الماما».

لكنه سرعان ما نسي بكاءه وعاد يضحك حين وضعت على الارجوحة
وبدأت تدفعه قليلاً وهي تلاعبه.
المطر قد غسل الاشجار والازهار فبدت اكثر لمعاً. الطقس جيد اليوم
عما يساعد في مناسبة كهذه: اعلان الخطوبة. كانت ساندي تفكر كعادتها،
لكنها ابعدت فرحتها جانباً لأنها تذكرت ان الخطوبة مزيفة، بل مزحة رتيها
احد التوأمين من آل كالدويل. الهدف من تدبيرها ان تربك وتعطل
الاشاعات المحلية حول علاقتها بليماند.

مدت يدها الى جيبيها. وجدت رسالتها الى ديريك سلون ما تزال مكانها
لقد نسيت ان تضعها بالبريد. ماذا سيعتقد ديريك بمغامرتها الجديدة هذه
لن يفهم ولو شرحت له القصة مليون سنة: خطوبتها الى ليماند الصورية.
ولكن لماذا تشرح له التفاصيل، افضل ان لا تخبره بها ابداً. عندما ستره
سيكون الصيف قد انتهى وانتهت معه خطوبتها الى فارس دانكريغان.
وبعد الارجوحة، انتقل ديرميد الى الزلافة. كان يتزلق عليها مع صغار

مستقبل ديرميد أولاً.

«انه احسن خبر سمعته منذ زمن بعيد». اختفت دموع مرتا وحل محلها بسملة عريضة. «هل اخبرت والديك؟ اعتقد ان عمتي ستسر للخبر. دائماً كانت تفاخر بتحصيلك العلمي ولكنها، يوم كنت بضيا فتكم اسرت الى بأمنيتهما ان تراك متزوجة يوماً ما. هل حددتما موعد الزفاف؟»

«لا. لا. قررنا فقط الخطوة الآن». شعرت ساندي كأنها وسط تيار يجذبها ولا تستطيع الرجوع. مرتا لا تفكر الا بحفلة الزفاف؟ مرتا تعتقد ان الزواج اهم خطوة في حياة الانسان.

«وهكذا. الخطوة تحل المشكلة. يمكنك البقاء بالرغم مما تقوله هيلين عنك. انها تغار مني، والآن تغار منك لأننا نقاسم ليماندا منزله... لا اعتقد انكما انتقيتما الخواتم بعد؟»

«لا ليس بعد» وقالت بنفسها: لن نفعل. هل حسب ليماندا حساب الخطوات التي تتبع عادة اعلان الخطوبة.

«اتمنى لكما السعادة». قالت مرتا ذلك وامتلات مآقيها بدموع الفرح هذه المرة. انها لحظات عاطفية ومرتا حساسة وعاطفية للغاية.

«انت لست غاضبة لانه خطبني انا وليس انت؟»

«كنت لفترة سابقة اعتقد ان ليماندا هو الرجل المناسب ليصبح والدي ديرميد ولكنني تحققت ان ذلك لا ينفع. انا وهو لا يجمعا شيء. لا احاديثنا متشابهة ولا يمكننا حتى ان نكون صديقين. من الضروري ان يكون الزوج صديقاً وحببياً في الوقت نفسه. تعلمت هذا الدرس من زواجي الأول، يوم كنت زوجة كروفورد». «ظننت انك كنت سعيدة معه!»

«كنت احبه يوم كنت اعيش معه. الحياة بصحبته مثيرة ومللة. هي مغامرة طويلة. كان يرغبني طالما انا جميلة ونشيطة ومستعدة ان اجاريه. وكما لا يخفك لا يمكنني ان اكون دائماً على هذا الحال. لما كنت احسن المرض او التعب كان لا يهتم لامري. كان يذهب يفتش عن من تسليه، خارج المنزل، بدلاً من البقاء بجواري ليخفف عني ويسليني. لم يحبني بالطريقة التي كنت ارجو ان يحبني... كنت اأمل ان اجد يوماً ما شخصاً يحبني كما اريد».

«بيل لندسي؟»

«نعم. كيف عرفت؟»

«ليماندا اخبرني».

«كيف عرف؟»

«انه يجيد الحساب». قالت وهي تضحك.

كان ليماندا قد وصل الى الغرفة.

«تهاني القليلة يا شقيق زوجي. لا يمكن ان تختار فتاة افضل من ساندي».

«لقد اخبرتها؟» نظر الى ساندي والشرر يتطاير من عينيها.

«كان لا بد لي. كانت تمر بحالة عصبية لأنك اخبرتها ان ديرميد يبقى في دانكريغان فقط اذا رضيت انا البقاء ايضاً معه. وكانت تعتقد اني لن ابقى بعدما اشيع عني وعنك».

«انا مسرور لأنك وجدت ان حل المشكلة كان ممتازاً. اريدك ان تعرفي ايضاً، يا مرتا، انني قررت ان اتكفل بمصاريف تعليم ديرميد عنك. هذا اقل ما استطيت تقديمه لابن اخي كروفورد. انا واثق ان والدي، لو كان حياً، كان سيفعل الشيء نفسه. اهلا به يعيش معي في دانكريغان الى ان نجدي لك منزلاً مستقراً».

وجه مرتا كان الآن جامداً من الفرحه وليس من الدهشة.

«اوه. ليماندا. كيف اشكرك؟»

«يمكنك ان تخبري بيل بهذا الترتيب في اقرب فرصة». قال ببرودته المعتادة.

«كيف خذرت بعلاقتي مع بيل. حاولنا جهلنا ان نبقيها طي الكتمان وسراً لنا».

«ليلة سهرت في الفندق معه ومع آخرين، لاحظت نظراتك اليه. بعد ذلك تحدثت مع هيلين وعرفت منها ما يريد بيل مني بشأن الصغير. بل اخبرها انه سيتزوج منك ليطمئن بالها. كانت هيلين تشك بأننا انا وانت نعيش قصة غرام. هي لا تثق بي كثيراً ودائماً لديها اسباب وجيهة لذلك».

«كم هي سخيفة. هل اخبرتها بخطوبتك لساندي؟»

«نعم الآن. وقبل ان يحل الظلام سيكون الخبر قد انتشر. حان وقت

في طريق العودة للمنزل وضعت ساندتي رسالتها بالبريد. كانت تجهل عنوان ديريك في جزر اليونان لذلك ارسلتها الى عنوانه في انكلترا. حين وصلا المنزل كان جوني في المطبخ يتناول الشاي.

«كم انتما بارعان في الكتمان؟»

«اعتقد ان الانباء وصلت الى كريغان». قال ليमानد ببرودة.

«هيلين جلبت الاخبار» كان جوني يسخر «كانت تنتظره على الشاطئ لتخبره النبأ فور وصوله. كنت اساعده في المركب وقت السباق. سمعت كل شيء. شعرت كأنني احق صغير وانا اعترف له ان لا علم لي بالامر». «انا وساندتي لم نكن نعرف... حتى هذا الصباح». قال ليماند ذلك وهو يضحك. «هذا كل ما عندك يا جوني؟»

«لا. تهايننا القليلة. كم كان رون صائبا وهو يمزح البارحة. لقد تنبأ لساندتي بذلك. كذلك والدتي سوف تقول انها رأت في فنجانها رجلاً اسمر».

«هذا صحيح. قالت لي انها ترى شاباً وسيماً اسود الشعر في حياتي». ضحكت ساندتي ثم تذكرت ما قالته نان عن هيلين وقد حذرتها من انها ستسبب لها المشاكل... شعرت بقشعريرة تسري في بدنها.

سألها جوني:

«وهل ما زلت راغبة في مشاركتنا رحلتنا البحرية غداً؟»

«اوه. لكن...» وأشارت ساندتي الى ليماند تعني بها ان ذلك اصبح غير وارد.

«رون سيفهم ولن يقف عائقاً بين حبيبين، واظن انه سيسعده ان يرافقنا ليماند». ثم نظر الى ليماند واكمل: «نحتاج لاجازة من العمل، يوماً واحداً، لماذا لا يكون ذلك احتفالاً بالمناسبة السعيدة؟» قال جوني.

«ربما» قال ليماند ونظر الى ساندتي بحنان. احست ان قلبها قد قفز من مكانه من شدة الفرح.

ابحروا في المركب الأزرق، قبل ظهر يوم الأحد. كان ليماند يساعد في فك الشراع وتحكيم وضعه. النسيم عليل. تركوا المصب وخرجوا الى

عرض البحر. عملية الابحار جعلت ساندتي تنسى جميع مشاكلها. كان يجلس ديرميد في حضنها باستكانة، وهي تتمتع بالتهاني التي انصبت عليها من مرافقيها وتعليقاتهم الخفيفة الظل. كان معهم في النزهة البحرية ستيل غرانت والساقية الشقراء واسمها جين هاردويك وهي ابنة صاحب الفندق والتي عادت لتمضية عطلة الصيف وهي جامعية ايضاً.

وصلوا الى خليج صغير، ربطوا المركب ونزلوا ليسبحوا. طريق العودة كان اقل حيوية ونشاطاً. كانوا يحرون بعكس الريح مما اضطرهم للاستعانة بالمحرك. حين وصلوا المرفأ ركبت هي وليماند ومعها ديرميد في زورق صغير وتولى ليماند مهمة التجديف. وقد احست ساندتي ان هذا اليوم من اجمل ايام حياتها اطلاقاً. لقد شاركها ليماند فيه وكان هادئاً وعاملها بلطف ولباقة لم تعهدا منه من قبل. كل من حولها لاحظ اهتمامه بها ولياقته في معاملتها.

في المنزل، عاد ليماند الى سابق عهده، قبل اعلان الخطوبة. لم تعد تراه اكثر من السابق. وقراء وقت الطعام ليس الا. الاثنتين حضرت السيدة برودي لتدبير اعمال المنزل. بدأت بالتهاني والتعليقات وأتبعها بوابل من الاسئلة.

ومرت ايام الاسبوع متشابهة. بعد الظهر وقت قيلولة الصغير كانت تدرس الصور من جديد عليها تحدد موقع الحفريات. ذهبت مرتين لزيارة مرنا في المستشفى. كانت تذهب مع جوني على دراجته. كان ليماند مشغولاً جداً ولم تسنح له فرصة للذهاب معها. منذ الأحد الماضي لم تره الا لماماً. وتخاف ان يلاحظ جوني ذلك ويستغرب الوضع غير الطبيعي بين خطيبين. هذا الاسبوع كان راكداً وكثيلاً اذاً ما قورن بالاسبوع الذي سبقه. الجمعة اخذت بعض الثياب الى مرنا في المستشفى لأنها تستعد للخروج يوم السبت. حين وصلت ساندتي الى غرفتها وجدتها في حالة عصبية كأنها تكبت احاسيسها. امطرتها مرنا بوابل من الاسئلة عن الحالة في دانكريغان.

«كل شيء على ما يرام». اكدت لها ساندتي «المكتبة اصبحت مرتبة ونظيفة. انا مسرورة لما قمت به من عملية التنظيف. لو يستطيع ليماند ان يوفر لي بعض الدهان لكنت طليت الجدران واعدتها قاعة استقبال من

«المنزل يحتاج لأكثر من ضربة دهان. يحتاج الى ترميم وتغيير للأدوات الصحية وأعمال نجارة... هل تشعرين الآن انك سعيدة وهل زایللك الاحساس بالذنب لأنك فرضت نفسك على ليماندا يوم حضرت».

«اكيد (كانت تكذب) ولكن لماذا تسألين؟».

«كنت اسأل اذا كنت ستبقين فترة اطول في دانكريغان. حضرت اليوم هيلين لزيارتي. سترحل عن كيركتون بعد ان سنحت لها الفرصة لتعمل هنا شريكة للدكتور باركر. تقول هناك فرصة اخرى لها في غلاسكو. ستعمل في ابحاث عن السرطان. ستسافر مع والدتها، كانتا مضطرتين، وانت تعرفين السبب؟».

«كلا، لا اعرف السبب. هل تعرفينه انت؟».

«السبب هو خطوبتك الى ليماندا. كانت هيلين تمني النفس بأن تزوج احد التوأمين وكانت على وشك الزواج من كروفورد ولكنه تشاجر مع والده وطرده من المنزل وتزوج بي. هيلين تظن انها اذا عملت في كيركتون قرب عمل ليماندا ربما تتحقق امنيتها في يوم من الأيام».

مسكنة هيلين، ولكن لماذا مرتا تعطف على حالها؟ صحيح انها سببت لها المشاكل وتناولتها بالأشاعات، ولمحت الى العلاقة بينها وبين ليماندا بشكل قذر، ولكن ها قد ردت الحراب الى نحرها وعادت عليها بأسوأ النتائج، سترحل من جديد بدون ان تحظى بأحد التوأمين. ستخبر ليماندا بالامر. ماذا ستكون ردة الفعل لديه؟ هل نسي ان يعمل حسابها؟ هل يهتم لامرها؟ وكيف لها ان تعرف؟ انه نسيج وحده ولا يمكن لأحد ان يتنبأ بتصرفاته.

عادت الى دانكريغان مع جوني على دراجته. انزلها امام المنزل واكمل طريقه من جديد الى كريغان. الشمس وقت الغروب ترخي ظلالاً خفيفة فوق التلة خلف المنزل. حدثت ساندي ورأت بكل وضوح ظلاً مستديراً. لا يد انه يعكس خندقاً كان يلف الحصن القديم.

ركضت الى مكتب ليماندا تخبره انها ستصعد التلة خلف المنزل. طلبت اليه ان يتنبه الى صوت ديرميد حين يستيقظ. لن تتأخر. كان في غرفة جانبية، اثاثها فخم قديم من طراز وندسور. لم ينظر اليها حين سألته بل

اكتفى بأن همهم.

اخذت هممته على انها موافقة، كان ليماندا مشغولاً جداً في تحضير الميزانية وبقية اعمال المزرعة كعادته في نهاية كل شهر.

بدأت الشمس تشحب وتستعد للمغيب. صعدت التلة وتعرفت الى الحفرة. كانت مليئة بالعليق. خلف الحفرة ترتفع الأرض بانحدار بسيط. التلة كلها تشكل الحصن. مشت حول التلة مع الحفرة. وجدت نفسها كما انتظرت، في الضفة الثانية من التلة، تشرف على مصب النهر. وصلت الى حاجز من الاسلاك الشائكة والتي تشير الى حدود املاك دانكريغان. الجهة الثانية قد مهدت واعدت للبناء. اختفت الحفرة كلياً هناك! نزلت التلة فوجدت حفريات شبكة تصريف المياه والمجارير.

قاعدة اساسية في عمليات التنقيب تقوم على دراسة حفريات المجارير قبل البدء في البناء. هنا يمكن للخبير في التنقيب ان يتحقق اذا ما ظهر، اي شيء له قيمة اثرية الى الوجود. هذه الاراضي قد اشترها البناء كارسون. الحفريات موجودة. عليها فقط التحقق لعلها تجد بقايا خزف او اثار اخرى من هذا القبيل، لتجزم ان حصناً قديماً كان هناك. ستعود غداً للمزيد من التفتيش.

بدأت تمشي بمحاذاة الحاجز. فجأة انتهى الحاجز ووجدت نفسها في الطريق التي مشتها مع ليماندا يوم عادت برفقته من كريغان. تحتها حصن دانكريغان كأنه شبح وسط الظلام الذي بدأ يحل بالمنطقة. تنبّهت ان احداً يتحرك باتجاهها في الممر. انه ليماندا...

«جئت ابحث عنك. لقد اتصلت والدتك واخبرتها انك ستصلين بها حين عودتك».

كان يقف امامها وجهاً لوجه.

«هل حدث شيء عندنا في البيت؟ هل اخبرتك والدتي اي شيء؟».

«لا. تبدين قلقة. هل تنتظرين حصول اي شيء في منزلكم؟».

«ربما وصلتها رسالة من مرتا تخبرها عن الخطوة. كان علي ان اخبرها بنفسي قبلها... ولكن، اظن ان تعقيدات لم نلاحظها من قبل تنتظرنا».

«لماذا تقولين تعقيدات بالجملة؟ اذكرها».

«هيلين سترحل. سوف لا تبقى لتعمل في كيركتون».
«وماذا بهم؟ انها حرة التصرف وتختار ما يروقها». ظهر لساندي انه لا يهتم بها.
«انها سترحل لانها جرحت مرة ثانية من احد ابناء كالدويل. خطوبتك لخطبت كيانها».
لم يجيبها فوراً. حين اجابها كان يبدو مسروراً وتمنت لو ترى وجهه. كانا يمشيان جنباً الى جنب والعنمة تغطي المكان.
«هل انت حزينة لأجلها. لا تهتمي بها. هل يزعجك ان تخبري والدك بالخطوبة؟»
«لا. الا اذا كان ذلك لا يضايقك؟»
«لن اتضايق. اخبرهم بالأمر». ثم اكمل «خطوبتنا لها حسنات وفوائد عديدة».

اصبح هادئاً زيادة عن اللزوم. خافت. ربما سينقض عليها ليستفيد من فوائد الخطوبة. ركضت بسرعة امامه ولكن يده امسكت بها. وادارها بسهولة لتواجهه وهو ما زال ممسكاً بها ويدها على خصرها، مستعداً ان يطبق عليها ان حاولت ان تتحرك.
«لا تركضي بسرعة. على مهلك قليلاً. القمر ليس بداراً الليلة ولكن هناك نجومات تكفي». وضعت يدها على صدره لتبعده وهي تدافع عن نفسها. احست سرعة نبضات قلبه تحت يدها. كان ما يزال بشباب العمل التي يلبسها في الحقول. قالت ببرودة تصنعها:
«اعلان خطوبتنا لا يعطيك الحق في مغازلتني».
«اعتقد انها كذلك. لقد قيل لي ان العناق والغزل من متممات الخطوبة بل اهم ما فيها. في نيتي ان اتمسك بحقوقتي وامتيازاتي وانتفع بها كاملة».
«لا تنتظر مني ان احب ذلك».

حين عانقها خافت ان يشعر بحماسها له، او انها رضخت لرغباته بسهولة. استجمعت قواها وافلتت منه وركضت كأن وحشاً بشرياً يلاحقها. كان شعورها الحقيقي سعادة كبيرة تلت العناق والركض. تمنت لو يلحق بها ويجعلها تدفع الثمن مزيداً من العناق حتى يكتفي ويكتفي.

وصلت الى المطبخ ومنه الى القاعة الاساسية. كان قد لحق بها. امسك بها قرب باب القاعة وجعل الحائط خلفها. نظراته صاروخية. عانقها بقوة ورمى بكل ثقله على صدرها. لم تستطع الحراك او الدفاع لأن المد المثير الذي ارتفع في داخلها، غمرها.
«انت تحبين العناق». قال بحنان وقد انقطع نفسه «وقبل ان ينتهي الليل سأجعلك تعترفين بأنك تحبينه».

ابعداً قليلاً عن الحائط واحاطها بذراعيه ليضمها اليه اكثر. هذه المرة كان عناقها لطيفاً. كان يحرك عواطفها حسب رغبته، يأخذ منها مقابل ما يعطيها. رفعت يدها لتلمس وجهه وتلعب بشعره الأسود. لا فرق عندها بعد الآن ماذا سيحصل. مرة ثانية شعرت انها ترغب بكل ما يرغب فيه. لأول مرة منذ حضرت ساندي الى دانكريفان اطالت النوم صباحاً. استفاقت على يد صغيرة تهزها. فتحت عينيها لتجد ديرميد قربها مصبوغ الوجه بحمرة الشفاه كأنه مهرج.

«ساندي. قومي. انني جائع واريد الفطور».
«ماذا فعلت بوجهك؟»
«استعملت ادوات الزينة خاصة الماما. هي تضع الحمرة على فمها. هل شكلي جميل مثلها؟»
اعطاها اصبع الحمرة وقد تهشم واصبح لا ينفع لشيء.
«ايها العفريت الصغيرة» احتارت ساندي هل تضحك ام تصرخ في وجهه وتؤذنه.
«علي ان انظفك قبل ان يراك عمك ليemand والا سيكون لك معه شأن اخر».

مشى ديرميد معها الى الحمام بدون معارضة خوفاً من توبيخ عمه له. اطلت الى غرفة مرتا فوجدت جميع ادوات الزينة والملابس مبعثرة هنا وهناك. نظرت اليه فاذا هو يستعطفها وهو يرتجف:
«لا تقولي لعمي ليemand».

«طيب. لكنك شيطان يا ديرميد مثل ابيك وعمك حين كانا في عمرك...»
كان المطبخ خالياً، لا جوني ولا ليemand بالداخل والسيدة برودي لا

تحضر يوم السبت. الصبحون الوسخة... في المغسلة. وضعت ابريق الشاي حضر جوني. جلب فنجان شاي وصب لنفسه وبدأ يشرب وقال: «تأخرت في النوم. متأسف لأنني قطعت عليكما عناكما، انت وليماندا، الليلة الماضية». كانت واثقة بأنه لن يترك هذه الفرصة تمر بدون ان يعلق عليها.

«لا تهتم. كنا فقط نقول مساء الخير».

«او. لا تلفقي يا ساندي. هل تظنين انني لا افرق بين عناق مساء الخير والعناق الحار... لقد نلت اللوم والتقريع العنيف من ليماندا لانني عدت باكراً من القرية. وهذا الصباح، لم يكن ودوداً معي». بالتاكيد لأن رجوع جوني باكراً الليلة الماضية ضيع على ليماندا فرصة. كان يرغب في مغازلة ساندي لحين تعترف له بأنها تحب العناق مثله. حضور جوني جعل ليماندا يفلت ساندي التي ركضت بدورها الى غرفتها في الطابق العلوي.

كانت ساندي تراقب جوني وهو يرمقها بنظرة العارف في بواطن الأمور بدأت تتلهى وتحببه بما قام به ديرميد من شيطنة. فيها هما يتكلمان رن جرس التلفون. طلبت من جوني ان يتبه الى الصغير كي تتكلم على التلفون:

«ساندي. انا امك. لماذا لم تتصلي بي مساء؟».

«متأسفة يا ماما. تأخرت في استلام رسالتك الهاتفية لي واعتقدت انك ذهبت للنوم. هل هناك اي مشكلة؟ انت تتكلمين في التلفون من مسافة بعيدة وفي النهار!».

«لا. لكن اخباري لك ضرورة. زارنا صديقك ديريك سلون...».

«لكنه موجود الآن في جزر اليونان».

«لا. لقد عاد. انتهت المهمة قبل موعدها. وصل هذا الاسبوع الى انكلترا. وجد رسالتك بانتظاره. كان متحمساً جداً لما اكتشفت. سيمر عليك قبل ان يزور صديقه الذي يعمل في متحف غلاسكو - قسم التنقيب. كان عليّ ان اعلّمك. سيصل بعد ظهر اليوم. سيحضر بالسيارة. هل يستطيع ان يتصل بك؟».

«بالطبع. امي هل استلمت رسالة من مرتا مؤخراً؟».

«لا. لا منك ولا منها، لماذا. ماذا يحصل عندكم؟».

«كنت افكر ان اكتب لك او اتصل تلفونياً لاخبرك انني اعلنت خطوبتي».

«صحيح. يا حبيبي. ما احل اخبارك. هل خطيبك شخص نعرفه؟».

«لا. ولكنك سمعت به. انه ليماندا كالدويل. سلف مرتا...».

في البداية كنت لا احبه!.

«هذا يحصل دائماً. اظنك حكيمة لانك ترغبين في فترة خطوبة. لا تتعجلي الزواج مثل مرتا. الخطوبة تعطيك فرصاً افضل للتعارف وكذلك للتراجع قبل الارتباط الجدي في حال وجدتما ان الزواج لن ينفعكما. علي ان اتركك الآن. والدك خلقي يذكرك بتكاليف هذه المخاطرة. يرسل لك حبه. ساكتب لاقول الى ليماندا اننا نحب ان نراكما في زيارتنا متى تسنح لكما الظروف».

اغلقت ساندي سماعة التلفون. شعرت براحة بعد ان اخبرت والدتها بالخطوبة. كان جوني ما يزال يلعب مع ديرميد ويضاحكه.

«اين ليماندا؟».

«يطعم العجول».

«انتظر مع ديرميد دقائق قليلة ارجوك. على ان اكلم ليماندا بشيء هام».

ركضت الى الزريبة. الهواء خفيف وكذلك الامطار. كان ليماندا يحمل سطلين فارغين. رآها راكضة نحوه. توقف مكانه ينتظرها.

«ما الخبر؟» سأله. كان جافاً لا وجود لابتسامة على وجهه. التعب ظاهر على محياه كأنه لم ينم ابدأ الليلة الماضية.

«مزيد من التعقيدات» قالت له «اتصلت والدتي. لدينا زائر بعد الظهر».

«هل ستحضر والدتك الى هنا؟».

«لا. انه صديق لي».

اجابها ساخراً:

«هل هو صديقك الذي تشاركينه في ميوله، بقايا الحزف، الآثار، التوابيت».

«انه هو». اجابته وهي تتعجب كيف حزر. كان ليماندا يضحك بصوت مرتفع.

«لماذا تضحك. انا مرتبكة ...» قالت وهي تكاد تنفجر من الغيظ.

«ما الذي يضايقك؟ هل تجدني خطوتنا مربكة الآن؟»

«نعم. لا اظن ديريك سيفهم اسباب الخطبة المزيفة. لا اعرف كيف سأشرحها له».

«ارجو ان لا تكوني راغبة في قول الحقيقة له؟»

«لا أستطيع ان اخبره الحقيقة الا اذا وافقت انت. ربما سيشرح بجرح مثل جرح هيلين».

«هل اخبرت والدتك بالخطوة؟»

«نعم».

«هل كانت متفهمة للوضع؟»

«نعم. قالت اعلان الخطوة أولاً عمل حكيم يساعدنا في ان نتعرف اكثر على بعض، ثم نستطيع فسخها حين نقرر اننا لا نصلح للزواج».

«اذن. قولي لديرِك الشيء نفسه. واذا لم يفهم يكون ذلك من سوء طالع».

«اذهي الآن الى المنزل من اجل رعاية ديرميد».

«ولكنني...»

«قلت لك ما يتوجب عليك عمله. الم تحضري الى هنا لتأخذي نصيحتي؟ هل كنت تعتقدين انني سأفسخ الخطوة بسهولة فترة زيارة ديريك هنا. انا لا أستطيع ذلك. أسف. اذا فسخت الخطبة بهذه السرعة تزيد الاشاعات اكثر وبالتالي لن تستطيعي البقاء. أسف لأن الخطوة بنظرك ورطة مربكة، لكننا وافقنا عليها سوية، من اجل سمعتك وفضائلك، كي لا تزيد من تلطيخ سمعتي وتزيد لها سوادا وكبي تعطي مرتا الوقت اللازم لتحصل على رغباتها... عن اذنك. انني مشغول. لدي حيوانات اريد اطعامها».

تكلّم بخشونة وكبرياء مما جعل ساندي تظهر امامه كأنها عبدة له، عليها الاخلاص والولاء. نظرته اليها كشيء يثير قرفة واشمئزازه.

«نعم. نعم يا سيدي» اجابته وهي تضحك. قدمت له تحية ملكية، ركعت له ساخرة لم تشعر ساندي ان عواطفها قد جرحت، لكنها احست

بالدموع تحول في عينيه. فتشت عن السبب، ولكنها استبعدته على الفور. لا يمكنها ان تعترف ان خشوتها قد جرحت احساسها، لانها في قرارة نفسها قد وقعت في حبه.

صباحاً رن جرس التلفون وكانت مرتا على الخط كان صوتها ضاحكاً.

«احزري يا ساندي».

«ماذا؟»

«تزوجنا الآن، برخصة خاصة، انا وبيبل».

«لماذا لم تخبريني البارحة بعزمك؟ كنت ولا شك تعرفين».

«اردناه زواجاً سرياً. ارجوك اخبري ليماندا بالنيابة عني».

«طبعاً. سأقول له. ان تحضري الى هنا بعد الظهر كما اتفقنا؟»

«لا. سنذهب شهر غسل صغير الى بلد يعرفها بيب. عندما نعود سنأخذ ديرميد ليعيش معنا في بروكفيلد».

«لم اسمع ان احداً تزوج وهو بالجص وعلى عكازين؟»

«ولا انا كذلك». قالت مرتا وهي تضحك. «قررنا ان نبقي سوية، بما انه سيمالجني في اي حال».

وقت الغداء، اعلت ساندي الانباء الى ليماندا وجوني. لم يعلق ليماندا. سر جوني وقال:

«خطوة هنا وزواج هناك. علي ان ارجع فوراً الى الجامعة قبل ان تصيبي العدوى. كما تعرف يا ليماندا، لقد تغير هذا المنزل منذ وضعت مرتا قدمها فيه».

«هذا صحيح. ولكن لا تهتم للأمر. كل شيء سيعود لسابق عهده بعد اسبوع او اكثر». اجاب ليماندا.

كان ليماندا يرمي من كلامه انه لا لزوم لها في دانكريغان بعد ان تأخذ مرتا ابنها.

فترة قيلولة ديرميد امضتها ساندي في المكتبة تفتش من جديد عن البقايا الخفية التي عثر عليها كافن. عليها ان لا تتعجب من موقف ليماندا الجديد. لا شيء غريب عن طبيعته. دائماً بارد ولا يكثرث. غريب الاطوار احياناً. ها هو يتصرف الآن كأنه ليس صديقاً لها او حتى حليفاً.

ولكن. الليلة الماضية، لو لم يحضر جوني... ثم ابتعدت عنها هذه الفكرة بسرعة، ما الذي كان سيحصل؟ حضور جوني كان لصالحها. ثم يوم حضرت هيلين وقطعت عليها عناقها... لو لم تحضر... ولو لم يحضر جوني... ربما كان ليماندا اضافها الى لائحة الازهار التي قطفها ثم رماها. انها تعرف، انها لن تقاوم سحره.

امتلات عيناها بالدموع من جديد. امسكت بكتاب لتنظف الغبار عنه. كان كبيراً وسميكاً. فتحت الغطاء واصابتها رعشة دهشة للفور. انها كانت علبة متخفية بشكل كتاب. بداخل العلبة بقايا ملفوفة بعناية فائقة في ورق ناعم.

نسيت دموعها. فتحت العلبة بعناية. ظهر لها دبوس الزينة المعدني (ربما كان مصنوعاً من الذهب). الدبوس يشبك القماش حول الرقبة او على الكتف. ملصق بالدبوس بطاقة كتب عليها كافن بخطه: وجد في حفرة في التلة مما يؤكد نظرية تشايلد في بداية هذا القرن، ان دانكريغان هي موقع حصن قديم في العصور المظلمة. ثم وجدت العجينة الفخارية وعليها بطاقة تقول: وجدت في حفرة في التلة، ربما بقايا عجينة فخارية للصب في قوالب معدنية.

اعادت ساندي البقايا في عناية. ان ديريك يستطيع مساعدتها لتحديد قيمتها. ستأخذ رايه عند وصوله.

وقع نظر ساندي على صورة كافن وفيليدا فوق المكتب. امسكت بها لتعيد النظر. ما اعجب هذا الرجل. انه مزيج من الكبرياء والعجرفة ولكن في داخله احساس عميق. هو عالم وباحث وقد ربح الميداليات لبطولات وشجاعة في المعارك ليس ليقتل بل لينقذ ارواح الرجال الذين يعملون تحت امرته.

نظرت الى فيليدا وجهها البشوش فيه مكر محبب. قيل ان المرأة مستهتره ومتيقظة. قيل ايضاً انها متحمسة، ولا تفكر في نفسها. هي الوحيدة التي تبرعت في مرافقة سيتوارت لندسي في رحلة تجريبية في مركبه الحديد وقد غرقت معه. مما لا شك فيه ان كافن قد احبها. ولكن هل كانت هي ايضاً تحبه. هل احبت سيتوارت لندسي؟ لا احد يعرف. فقط فيليدا وحدها تعرف الحقيقة وقد ماتت فيليدا وماتت الحقيقة معها.

انتقل تفكيرها الى بيل وهيلين، ولدي سيتوارت، ثم الى ليماندا الولد الحبي الذي الباقي لكافن. قارنت بينهما. الشعر الأسود وعينا كافن التي تشبه الصاروخ وتمتد لنفسها، لو كنت انا مكان فيليدا لكنت بالطبع اعرف من احب.

«أريد رؤية الصور. انني بطريقي لرؤية نويل ماك - كويش انت تعرفين ان الشاب عمل في حفريات التنقيب في روكستر وهو يعمل الآن في متحف غلاسكو. سيسر جداً بما اكتشفت».

«علي ان استأذن ليماندا في السماح لك بأخذ الآثار معك».

«من هو؟».

«انه المالك الحالي لهذه الاراضي وابن الرجل الذي عثر على الآثار. انه خطيبي».

انتهت من مشكلة اخبار ديريك انباء خطوتها. انتظرت ردة الفعل عنه. لم يبد اي انزعاج بل اكمل فحص الدبوس الذي بين يديه. ثم قال ببرود:

«لماذا الخطوة الآن. اعتقدت دائماً ان لا صبر لديك لمؤسسة الزواج وترغبين في اكمال علومك للنهاية».

«الخطوة خطوة مرحلية تتيح لنا ان نتعرف على بعض ونكتشف اذا كنا حقيقة نرغب في الزواج. يمكننا ان نتراجع متى نرغب ونعلن فسخها».

«اعتقد ذلك. كنت تعرفين ان هناك دراسات تقول بوجود حصن قديم يعود الى القرن السادس في هذه المنطقة».

كان ديريك يقلب القطعة الفخارية وينفحصها. اهتمامه بها يفوق اهتمامه بانباء خطوتها.

«انها عجيبة خزفية لصنع ادوات الزينة. يوجد عليها نقوش في داخلها. انها تذكرني ببعض البقايا التي وجدناها في مستوطنات الانكلو - ساكسون. هذه القطعة عليها نقوش».

ان خطوتها لا تعني له شيئاً. هي بالنسبة اليه صديقة تشاركه ميوله العلمية وبحوثه. لديها مصالح مشتركة لبحثها مثل: بقايا الخزف والدياباس الاثرية. انه لا يراها كامرأة وسوف لن يراها كذلك ابداً. «سأصل بـ نويل. سأطلب منه الحضور الى هنا. هل هناك نزل نبقى فيه، نوم مع فطور؟».

«طبعاً. في القرية. جوني يعرف اين. علي ان احذرك ان ليماندا لن يسمح لاحد بالحفر في القسم من التلة التي تقع ضمن املاكه لانه زرعها اشجاراً صغيرة».

٨ - رفيقتي الى الأبد... زهرة

لم يصل ديريك بعد الظهر كما انتظرت ساندي. حضر في اليوم التالي صباحاً بينما كانت ساندي تغادر المنزل مع ديرميد الى الشاطئ لتستفيد من تحسن الطقس.

نزل ديريك من السيارة السوداء الصغيرة التي كان يقودها بنفسه. رأى ساندي مع ديرميد. ضحك لها وقال:

«مرحباً. اخبريني ما قصة الحصن القديم الذي يعود تاريخه الى العصور المظلمة؟».

«استلمت رسالتي اذن!».

«وصلتني في اليوم نفسه الذي وصلت فيه الى البيت عائداً من الجزر اليونانية».

كان ديريك قد اكتسب سمرة محبة، من البحر الأبيض المتوسط، ظهرت بوضوح على وجهه الطويل النحيل واعطت لشعره الاشقر لوناً برونزياً. لباسه، كالعادة، قليل الترتيب. عصي المزاج، عيناه زرقاوان، سريع الملاحظة، يلبس على عينيه نظارات طبية.

رؤية ديريك لم تجعل نبضها يسرع ولا سمعت طنيناً في اذنيها. اهتمامه بالحصن كان يفوق اهتمامه لرؤيتها. بدأ عقلها يحضم هذه الحقيقة وهي تجيب عن اسئلته حول الحصن. اخذته الى المكتبة في المنزل حيث عرضت عليه البقايا الاثرية التي كان قد وجدها كافن في التلة.

«الصور الفوتوغرافية تجزم بوجود الخندق». قالت ساندي «ولكنه مليء بالعليق».

«هذا سخيف».

«الليلة الماضية تمشيت حول التلة في الموقع الذي اعتقد انه الخندق. انتهيت في موقع للبناء. وجدت حفريات المجارير التي قام بها عمال البناء».

«مجارير. هذا عظيم. هل تعرفين البناء؟»

«اعرف ابنه، هو الذي جلب لي الصور».

«حسناً. متى نستطيع زيارة الموقع؟»

«الآن اذا كان باستطاعتي ان اصطحب معي الصغير».

كريغان هادئة مع مطلع الصباح والشمس مشرقة. بعض المراكب كانت تتأرجح في المصب ولحسن الحظ جوني ورون مازالا على الشاطئ. ولم يبحرا بعد. رحبا بديريك ووجدا له مأوى في نزل صغير ثم ذهب الجميع لرؤية الحفريات المعدة للمجارير في موقع البناء.

بقوا هناك للظهر. كم يمر الوقت سريعاً. عادت ساندي مع رون في سيارته ومعها ديرميد الى دانكريغان. التقت سيارة هيلين تغادر المنزل قبل وصولها. كانت هيلين في طريقها باتجاه كيركتون.

لم يكن ليماندا في المنزل. اكلت هي وديرميد ثم اخذته لغرفته ليرتاح. نزلت الى المكتبة لتكمل عملية تنظيف الكتب. بعد الظهر اخذت ديرميد معها حيث ساعدت في عملية التفتيش وسط الحفريات المعدة للمجارير. لم يعثروا على شيء. اتصل ديريك تلفونياً بنويل. اخبره انه سيصل الى دانكريغان في اليوم التالي. مشت ساندي مع ديريك وديرميد الى المنزل. اراد ديريك ان يسأل ليماندا السماح له ليطلع نوبل على الاثار التي في المكتبة.

كان ليماندا ما يزال في الحقل يحاول اصلاح محرك الجرار. تعرف الى ديريك وصحبه الى المكتبة. سألت ساندي:

«هل تسمح لنوبل ان يأخذ الاثار معه الى متحف غلاسكو لتقييمها وتوثيقها».

اجاب ليماندا بعدم اكرثا:

«لا مانع عندي. المهم ان تبتعدوا في الحفر حيث المزروعات»

«اذا استطعنا ان نبرهن وجود الحصن سيعود الفضل في ذلك لوالدك».

اخبرتني ساندي عن المخطوطات التاريخية التي فيها. ارجو ان تنشر يوماً ما».

«ربما افعل. ارجو ان تذكر فضل ساندي لأنها كانت تنقب هنا».

«بالطبع. ستساعدنا في الحفريات الاسبوع المقبل. قبل كارسون البناء ان يؤخر عماله في البناء لحين ننتهي من عملية التنقيب». قال ديريك جاداً.

«حسناً» قال ليماندا وترك الغرفة بدون استئذان وكأن شيئاً لا يعنيه، حتى انه لم ينظر الى ساندي. قال ديريك:

«انا لا افهم!».

«ماذا تعني؟».

«هو وانت».

كادت ساندي ان تحبسه ان خطوبتها صورية فقط لتنتهي الاشاعات حول علاقتها. لكنها متأكدة ايضاً من انه لن يفهم الاسباب مهما شرحتها له. توقفت.

«ربما جميع آرائي بصدد مؤسسة الزواج خاطئة. كنت اتخيل الخطيئين في حب ظاهري وحنان ملحوظ». ثم اكمل حديثه كمن لا يعنيه الأمر او كمن اربك في بحث موضوع خاص، «كالحب بين شخصين».

«وكيف تعرف اننا لسنا كذلك عندما نفرد ببعض؟ عواطفنا هي ملكنا وحدنا وليست عرضاً للتسلية، يتفرج علينا الآخرون».

«اعتقد انك على صواب. سأعود الى القرية. لقد دعاني رون الى منزل والديه للطعام».

انزعجت ساندي من حديثها مع ديريك. بقيت كذلك فترة بعض الظهر. بقي ليماندا معزولاً عن الجميع وبذلك اعطى ديريك مجالاً لمثل هذا التفكير. تراجع ليماندا في علاقته معها. تذكرت اول اسبوعين لها في دانكريغان. كانت لا تراه الا وقت الطعام. كأن لا اسرار بينهما مثل سر الخطوبة.

كانت ساندي تأخذ ديرميد معها كل يوم وتغضي معظم اوقاتها فوق التلة. وصل نوبل وقرر ان يبقى في دانكريغان لنهاية الاسبوع. وجدوا في حفريات المجارير بعض الاثار: عظمة مصقولة تشبه مسكة مشط وعليها

زخرفة ونقوش، بقايا خزفية أخرى... عثر ديريك على رف من الحجارة المرصوفة. يحتاجون للحفر والتنقيب في نطاق واسع ليتحققوا عما عثر عليه ديريك. قال نويل:

«نحتاج من خمسة الى ستة اسابيع في العمل هنا. سأعود الآن الى المتحف. كارسون يستطيع الانتظار ليكمل البناء متى نفرغ من التنقيب. من المؤسف انك لن تبقى حتى النهاية يا ديريك.»
«عليّ ان اعود للجامعة في دولشستر من اجل ابحتائي. انا لا اعرف ماذا ستفعل ساندي.»

حتى ولا هي تعرف ماذا ستفعل... عادت مرتا من شهر العسل ومرت الى المنزل بطريقها الى بروكفيلد لتأخذ ديرميد معها. كان ليماندا خارج المنزل في قرية كيرك كادبرايت في اجتماع مع اعضاء المجلس. وصلت مرتا وكانت ما تزال تستعمل العكازين. كانت جميلة مشعة، ووجهها مشرق بالسعادة. ومعها بيل بطبعه المرح المعتاد.
«يمكنك ان تأتي لتعيشي معنا في بروكفيلد.» قالت لها مرتا «لحين تحديد موعد الزفاف. هل ستذهبين الى هامشير قبل الزواج؟»

«نعم. ارغب في العودة الى هامشير. يمكنني ان اذهب برفقة ديريك. سيترك اليوم بعد الظهر.» دهشت مرتا من قرارها ولكنها شرحت لها الاسباب بسرعة، «سأذهب من اجل الحصن.»

«انه مثير» قالت مرتا. كانت تظهر على قسماات وجهها امارات الضجر. اكملت «اعلميني قرارك. اخبري ليماندا اننا عدنا ونود رؤيته. ما يزال علينا بحث مستقبل ديرميد العلمي معه بالتفصيل.»

غادرت مرتا وبيل دانكريغان ويصحبتهما ديرميد. شعرت ساندي ان لا شيء يشغلها هي حرة التصرف وتستطيع الرحيل اذا رغبت. ولكنها ليست حرة تماماً. عليها انتظار عودة ليماندا لتخبره برجوع مرتا. الآن اسباب بقائها في دانكريغان زالت وبزوالها تستطيع هي وليماندا فسخ الخطوبة.

انها لا ترغب في الرحيل. دراستها في دولشستر لم تعد تهمها. صعدت الى غرفتها وبدأت توضح حوائجها لتكون جاهزة حين يحضر ديريك، كما وعد. قال سيمر عليها قبل عودته، بطريقه الى كيركتون في الجنوب. كانت تجمع حوائجها بشكل مضطرب وتجد صعوبة في ان تبقى عقلها يعمل.

تحاول ان ترمي خلفها كل الافكار المزعجة ومنها اسباب ابتعاد ليماندا عنها مؤخراً. كان هذا يجرحها بل يؤلمها كثيراً.

الافكار تتلاحق في ذهنها. تذكرت آراءها العفوية عن الحب والزواج وعن امكانها ان تعرف مع نهاية الصيف اذا كان هناك شخص ترغب الزواج منه والعيش معه. وها قد انتهى الصيف وعرفت انها تحب صديقاً وترغب العيش معه لآخر العمر. لا فرق عندها في الطريقة التي يختارها لتبقى معه، قرية منه، تتجادل واياه، يويخها بسخرية، تمشي معه في ضوء القمر، تضحك معه، تحبه.

انتهت من حزم امتهتها، ذهبت الى النافذة ونظرت الى الحصن. الطقس غائم والهواء شديد يصفر ويرسل الغيمات راكضة في السماء. المياه في المصب تدور بفعل الرياح وتجعل رغبة بيضاء تطفو فوقها.

تذكرت ساندي بيتاً في الشعر لتسون حيث قال: «المياه تمطر على جدران الحصن». وفجأة دخلت عالم الماضي بخيالها. رأت الحصن كما يجب ان يكون في العصور الوسطى: سلطة وقوة، في المدخل، الفرسان تلبس دروعها التي تلمع تحت اشعة الشمس. الاعلام المثلثة الملونة ترفرف بفعل النسيم. الكل في هرج ومرج سوى فارس واحد. كان مبتعداً عن الآخرين مع حصانه الأسود. انيق في ثوبه الرمادي وبنطلونه الأسود. يضع في خوذته الرياش المميزة. كان ينظر الى سيدة جميلة تظل من نافذة في الحصن.

رف جفنها ورجعت الى الواقع. تذكرت حلم اول ليلة لها في دانكريغان. الحلم الذي تكرر اكثر من مرة... وكان البطل هو نفسه فارس دانكريغان، ليماندا. تذكرت انها لم تزرق قبو الحصن ولا السجن.

عليها ان تزورها الآن والا لن تراهما ابداً.

نزلت سريعاً الى المطبخ. وجدت جوني هناك. سألته:

«اين اجد مفتاح الحصن؟»

«معلق في مسمار على المدخل المسقوف في الرواق لماذا؟»

شرحت ساندي له بسرعة. قالت له ان مرتا قد حضرت واخذت ديرميد معها الى بروكفيلد. واسرعت راكضة، بينما كان جوني يوصيها ان تنتبه لنفسها وهي في داخل الحصن.

كانت تسير بعكس اتجاه الرياح وهي بطريقها الى الحصن. بدأت اوراق الشجر تصفر مؤذنة بموسم الخريف. اوراق الكرز قد جمعتها الرياح قرب الحصن. فتحت باب الحصن ودخلت. كانت السيارات الثلاث ما تزال مكانها في الساحة. في زاوية الغرفة وجدت الباب الأرضي الى القبو قد فتح كأن احداً قد نزل الى اسفل، منذ قليل.

نزلت السلالم الخشبية بتأن. سرت لأن الكهرباء قد اضيئت قبل وصولها. الشخص الذي دخل قبلها ترك لها النور الكهربائي لينير عتبة القبو. الغرفة تحت الأرض باردة ورطبة ولكنها نظيفة وتشبه المستودع. مساطب خشبية متينة رصت فوقها علب زيت المكنات والمحركات. انها مستودع ولا شك.

يقع السجن في زاوية القبو. غرفة صغيرة مبنية من حجارة ولها باب من القضبان الحديدية. مدت رأسها بين قضيبين من الحديد في باب السجن وارتعشت من فكرة سجنها داخل هذه الغرفة الصغيرة خلف القضبان وسط العتمة.

يوجد باب خشبي قرب غرفة السجن. فتحت مزلاجه فاذا بها امام نفق طويل. انه نفق المهرين. فرحت لأنها وجدته بسهولة. دخلته مستعينة بالضوء المتسرب من القبو. رأت امامها باباً اخر صنع حديثاً، في اخر النفق. يفتح من الداخل وله قفل ايضاً. صنع ليمنع دخول عابري السبيل من الشاطئ الى الحصن عن طريق النفق.

فتحت الباب الى الداخل وخرجت لتجد نفسها امام تلال من الرمال جرفتها بغضب، الرياح العاتية وامواج البحر الهائج، الى اليابسة. كانت الرياح الشديدة تعيث بشعرها وتلفه حول وجهها. مشت الى الشاطئ امامها. هل من الممكن ان تمشي من هنا الى الخارج: الى مصب النهر او الى الخليج الصغير حيث تلعب مع الأولاد يومياً. كلا الطريقين غير سالك. تذكرت ليমানند حين قال لها ان الرمال هنا مهلكة، متحركة.

من الأفضل لها ان تعود الى الحصن عبر النفق. فجأة سمعت صوت الباب يغلق دونها. اغلقته الرياح المعاكسة او التيار الهوائي. تفقدت المفتاح في جيبيها. لم تحبده. تذكرت انها ولا بد قد تركته في الباب الخارجي للحصن، حين دخلت.

هذه المرة، لقد سجنتم خارج الحصن. سجنها الآن خطر على حياتها. المد سيعلو بعد قليل ويغمرها. ربما تستطيع ان تتسلق الصخور الحادة التي كان الحصن مبنياً فوقها. خطر انزلاقها ووقوعها كبير.

بدأت تتفحص الصخور عليها تجد بعض المواضع لتثبيت يديها ورجليها ان فكرت بالتسلق. سمعت صوت الباب يفتح. وظهر امامها شخص بلباس رمادي وقميص اسود، انه ليমানند.

وقف ينظر اليها بعينين باردتين خاليتين من اي تعبير. وجهه جامد كالتمثال المنحوت. مد يده الى جيبيه واخرج المفتاح:

«اعتقد انها المرة السابعة التي انقذك فيها. خطوتنا هي السادسة. في المرة التالية حين تدخلين من باب الحصن لا تنسي المفتاح في الباب». اخفت رغبة ملحة في ان تركض اليه والى ذراعيه لشكره على انقاذها... ولكنها مشت من قربه ودخلت الى النفق.

«لن يكون هناك مرة ثانية. سأغادر دانكريغان اليوم. من اجل ذلك حضرت لأرى السجن والقبو. مرنا وبيل عادا من شهر العسل واخذنا ديرميد معها الى بروكفيلد. لا داع لبقائي هنا. سأغادر مع ديريك». اغلق الباب الخارجي للنفق. بدأ سيرهما في داخله. النفق رطب وبصيص نور يصله من القبو. كانا متقاربين لدرجة انها كانت تسمع انفاسه وتحس دفء جسمه. اسرعت مشيتها. كيف يمكنها ان تكون قريبة جداً منه ولا تستطيع ان تلمسه. هذا اكثر ما تستطيع احتماله. وها قد اقتربت ساعة الفراق بينهما.

«هل ترغين في الرحيل؟»

«علي تدبير امري من اجل الجامعة. لا اعرف بعد اذا كان قد قبل طلبي لاتابع دراستي».

«اذن، ما زال علمك اهم من اي شيء اخر فعلية؟» قال «ظننت انه ربما تبقيين مع فريق العمل الذي سيقوم بالتنقيب في الجهة الثانية من التلة». نظرت اليه. كان واقفاً قرب الباب يتابعها بعينه.

«احب ذلك ولكن...» قالت تغالب دموعها حتى لا يظن انها مثل مرثا لا تحصل على اي شيء بدون سلاح الدموع. «ولكن ماذا؟»

«اسهل لنا ان نفسخ خطوبتنا اذا رحلت». قالت وعينيها تنظر الى الأرض لتخفي دموعها المتساقطة غصبا عنها.
«اعتقد ذلك. هل تريدان فسخ الخطوبة؟»
«اليس هذا ما اتفقنا عليه؟»

«اعرف». مشى ناحيتها فجأة. قفزت الى الوراء حيث اصبح الباب الخشبي خلفها.

«لنفترض انني لا اريدك ان ترحلي وانني افكر جدياً بأن اسجنك هنا في الحصن لثلاثين عاماً». قال بحتان وقد اقترب منها اكثر وشاهدت يريق عيني كالصاروخ، «سأطعمك، سأجلب لك اللحم والشراب، وبعد الطعام والشراب اعانقك. وقبل ان ينتهي الليل تعترفين بأنك تخمين ذلك».

«ليماند» كان قد وضع يديه على الباب وحاصرها بينها «انت تحيك خرافة جميلة كلها احلام ساحرة. ولكنني لا استطيع البقاء».

«لم اسالك اذا كنت تستطيع البقاء. قلت لك اذا كنت ترغبين البقاء. يوجد فرق بين الحالتين. انني ارحب بك اذا رغبت ليس فقط لنهاية الصيف بل قدر ما تشائين».

«وهل هناك من شروط؟» سألته وهي تكاد لا تصدق ما تسمع.
«شروط واحد فقط. ان تتزوجيني. هل يمكنك اتخاذ مثل هذا القرار؟ هل يمكنك الهبوط من برجك العالي - العلمي وتتنازلي وتزوجيني، انا ملاك، مفلس، نظرت الى الحياة نظرة مادية صرف، اسم عائلته ملطخ بالسواد. اذا وافقت سأعمل قصارى جهدي ان لا اعطيك فرصة للندم على قرارك».

قربه بدأ يعذبها. كانت تتمنى ان تعانقه بكل ذرة من كيانها، تتمنى ان يلفها بعواطفه. رغبتها تجعل استعمال عقلها امراً مستحيلاً.

«وهل يجب عليّ اتخاذ قراري الآن؟»

«نعم. او اسجنك». قالها بجدية وبدون ان يضحك او حتى يبتسم.
«وكيف لي ان اقرر وانا لا اعرف شعورك نحو؟ كنت في الاسبوع الماضي بعيداً عني. ظننت ان رحلي يسرك، وانني ان فسخت الخطوبة ستعود الى هيلين وتصل ما انقطع بينك وبينها من حبل الود. لقد كانت

تزورك يوم الاحد. ظننت انك اخبرتها بحقيقة خطوبتنا المزيفة». «ما تزال حساباتك ضعيفة. لا احد يعرف حقيقة خطوبتنا الزائفة ولن يعرف احد اذا استطعت. لقد حضرت هيلين لتعتذر عن تصرفاتها الحمقاء. حضرت تودعني قبل رحيلها الى غلاسكو. لو كنت موجودة لاعتذرت لك ايضاً. كل ما يربطني بها هو حب من طرف واحد. جانبها. كانت تعتقد اننا كنا نرتبط بعلاقة محبة. كل فترة بقائي هنا في دانكريغان لم تكن لتفرق بيني وبين كروفورد». كان صوته يضحك وهو يتذكر حيله مع اخيه في الماضي.

«اذن. لماذا املتني الاسبوع الماضي؟»

«لانني ظننت انك لا ترغبين بي بعدما وصل صديقك. باحث التاريخ. انا لا احب ان اضايقك او اضايق غيرك. لدي كبرياء آل كالدويل ولا يسرني ان اكون عائقاً مربكاً لك. كان علي ان اترك لك الخيار بيننا، والآن بعد ان رحل صديقك وبقيت انت هنا...»

«ذهب ذيريك؟ متى؟»

«كان في طريقه خارج السور حين عدت من الخارج يصحب معه جوني الى كيركتون. اخبرني جوني انك في الحصن. اقترحت ان افتش عنك لتوديعه. قال انه لا يستطيع الانتظار. لديه موعد هام وخاص في كاليزل. اخبرني انه لا يعتقد انك ستحضرين الى دولشستر في تشرين الاول بدء السنة الجامعية. قال انه يتفهم اسبابك. شعرت عندئذ ان املي اصبح كبيراً في الفوز بك وعلي ان اتمسك بك بقوة. والآن ماذا نفعل يا ساحرتي الجميلة؟ السجن؟ او التسليم لقوة نشعر كلانا انها اقوى منا».

«نسلم» قالت وهي تركض لحضنه ولذراعيه.

«هل من شروط؟»

«هناك شرط واحد!»

«ما هو».

«حين اقول لك انني سأتزوجك لانني احبك عليك ان لا تفكر ان الكلمة تؤمن مصالح خاصة لي وامتيازات».

«اعدك بذلك. وافضل الآن ان نترك جو النفق الرطب ونذهب الى المنزل قبل ان اتكلم معك في الحب».

«هل هذا صحيح؟»

«انت صعبة الاقتناع ولكني سأجرب، انت اول زهرة التقطتها وارغب ان تبقى معي. انت اول امرأة طليت اليها ان تتزوجني. لا اعرف طريقه اعبر لك فيها عن عميق شعوري نحوك. لقد بقيت في منزلي فترة زمنية وتعريفين عني الكثير. هل اطلب منك ان تتزوجيني لو لم تكن عواطفني نحوك اقوى من عواطفني لأي امرأة اخرى عرفتها».

«انني اصدقك ولكن لا اصدق ان ذلك قد حصل لي. لماذا انا؟»
«لانك اول امرأة تهتم بعملتي ويعتزلي. لا تهتمك الألقاب ولا المراكز ولا المال. انك بحاجة دائمة لمن يقتنعك بأنك لست شخصاً لا جنس معين له. انك بحاجة دائمة لمن يثق بك. اسباب واسباب لكن من همه الأسباب».

عانقها بحنان ثم اكمل:

«فقط عالمة التاريخ تهتمها الأسباب والنتائج. كل ما اريده بقاءك في دانكريغان معي. واذا لم تقبلي علي ان اسجنك حتى لا تهربي. هذا ما يمكنني تقديمه لك وهو ليس بالشيء الكثير اذا ما قورن مع الابحاث والدرجات العلمية ومهنة التدقيق عن الاثار... اقدم لك كل ما عندي...»

وضعت يدها على فمه كي يكف عن الكلام. قالت بصوت مرتفع.
«اوه. ليমানند. انه اكثر مما احتاج. انا ارغب فيها ترغب انت. وكان هذا هو الحال منذ فترة».

«ولنخرج من النفق. في المنزل ستجدين انني لا امانع في ان تقولي لي انك تحبيني وتبرهنين لي عن حبك».

كان العناق سريعاً ولكن الوعود كثيرة. صعدت ساندي السلام من القبو الى سطح الأرض. كان قلبها يغني طرباً بل فرحاً لأن حلمها قد تحقق. ستبقى مع الفارس الأسود في دانكريغان الى الأبد.